كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

الجزء الثاني

علم الأدب

جمع الأب لويس شيخو اليسوعي

في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

كتاب

عِلمُ الأَدَبِ

مقالات

لِمَشَاهِيرِ العَرَبِ

على الجزء الثاني

من

عِلمِ الأَدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مَقَالَاتٌ

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

أَلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ

في علم الخطابة

ألفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

ٱلْخِطَابَةُ فِي ٱللُّغَةِ كَٱلْخِطَابِ وَهِيَ ٱلْمُكَالَمَةُ اَو ٱللَّفْظُ ٱلْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلْمُوَجَّهِ نَحْوَ ٱلْغَيْرِ لِلْإِفْهَامِ . وَعِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْخِطَابَةُ هِيَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ اَنْ

يُستعمَلَ فِي ذلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ . وَلَمَّا ظَهَرَ ارسطُو فِي يُونَانَ وهَذَّبَ مَبَاحِثَ ٱلْمَنطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ اوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ ٱلْخَطَابَةَ احَدَ اقسَامِهِ ٱلثَّمَانِيَةِ . وَهٰذِهِ ٱلْأَقسَامُ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ ارْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وهِيَ كُتُبُ ٱلْمَقُولَاتِ وَٱلعِبَارَةِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْبُرْهَانِ وَارْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْجَدَلِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى انْحَاءٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْارْبَعَةُ ٱلْأُولَى . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهٰذَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْأَرْبَعَةُ ٱلْأُخْرَى . وَفِيهَا تَدْخُلُ ٱلْخَطَابَةُ . وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَلِأَبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ كُلَّهَا . ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي كُتُبٍ خَمْسَةٍ ٱلْبُرْهَانِ وَٱلْجَدَلِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَٱغْفَلُوهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ هِيَ ٱلْمُهِمَّ ٱلْمُعْتَمَدَ فِي ٱلْفَنِّ . وَامَّا ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلْخَطَابِيَّةِ ٱلْبَلَاغِيَّةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي مُخَاطَبَاتِ ٱلْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْمُشَاوَرَاتِ وَٱلْمُخَاصَمَاتِ فِي ٱلْمُشَاجَرَاتِ اوِ ٱلْمَدْحِ اوِ ٱلذَّمِّ او ٱلْحِيَلِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلِٱسْتِعْطَافِ وَٱلِٱسْتِمَالَةِ وَٱلْإِغْرَاءِ وَتَصْغِيرِ ٱلْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ ٱلْمَعَاذِيرِ وَٱلْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ اَلْاِقْنَاعَ اَلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ. وَنَعْنِي (بِالْقُوَّةِ) اَلصِّنَاعَةَ اَلَّتِي تَفْعَلُ فِي اَلْمُتَقَابِلَيْنِ. وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً. وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي اَسْتِقْصَاءِ فِعْلِ اَلْاِقْنَاعِ اَلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ اَلشَّيْءِ اَلَّذِي فِيهِ اَلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ. وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ: (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ اَلْمَقُولَاتِ اَلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ اَلْفَصْلُ اَلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ اَلصَّنَائِعِ اَلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي اَلْاُمُورِ اَلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا. وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي اَلْجِنْسِ اَلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ اَلْاَجْنَاسِ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

(١) المقولة لغةً المقول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنه القول وأبرز فيه الحكم من الاجناس العالية المجردة عن المحسوسات التي ليس فوقها جنس. والمقولات عشر: الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون له والموضوع)

البرهان ويقنع في الصحة والمرض وفي انواعهما . وكذلك الهندسة انما تعلم على طريق البرهان وعلى طريق الاقناع في الاعظام والاشكال التي توجد في الاجسام . واما الخطابة فهي تتكلف الاقناع في جميع الاشياء في اي مقولة كانت واي جنس كان ولذلك ليس تنسب الى جنس خاص

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قال) ان صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل . وذلك ان كليهما يؤمان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير اذ كانت هاتان الصناعتان ليس يستعملهما الانسان بينه وبين نفسه كالحال في صناعة البرهان بل انما يستعملهما مع الغير وتشتركان بنحو من الانحاء في موضوع واحد اذ كان كلاهما يتعاطى النظر في جميع الاشياء ويوجد استعمالهما مشتركا للجميع اعني كل واحد من الناس يستعمل بالطبع الاقاويل الجدلية والاقاويل الخطبية . وانما كان ذلك كذلك لانه ليست واحدة منهما علما من العلوم مفردا بذاته وذلك ان العلوم لها موضوعات خاصة ويستعملها اصناف من الناس خاصة . ولكن من جهة ان هذين (اي الخطابة والجدل) ينظران في جميع الموجودات وجميع العلوم تنظر في جميع الموجودات فقد

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا. وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ. وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ. وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ. فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْاِنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبِغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ . وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب) .

(قالَ) وَلِلخَطابةِ منفعتانِ احداهما انْ يحثَّ الخطيبُ المدنيينَ على الاعمالِ الفاضلةِ . وذلكَ انّهمْ بالطبعِ يميلونَ الى ضدِّ الفضائلِ العادلةِ فاذا لمْ يضبطوا بالاقاويلِ الخطبيّةِ غلبتْ عليهمْ اضدادُ الافعالِ العادلةِ . وذلكَ شيءٌ مذمومٌ يستحقُّ فاعلهُ التأنيبَ والتوبيخَ اعني الذي يميلُ الى ضدِّ الافعالِ العادلةِ او المدبّرَ الذي لا يضبطُ المدنيينَ بالاقاويلِ الخطبيّةِ على الفضائلِ العادلةِ التي هيَ فضائلُ بينَ الانسانِ وبينَ غيرهِ اعني بينهُ وبينَ المشاركِ لهُ في ايِّ شيءٍ كانتِ الشركةُ لا بينهُ وبينَ نفسهِ . (والمنفعةُ الثانيةُ) انهُ ليسَ كلُّ صنفٍ منْ اصنافِ الناسِ ينبغي انْ يستعملَ معهمُ البرهانُ في الاشياءِ النظريّةِ التي يرادُ منهمْ اعتقادُها . وذلكَ امّا لانَّ الانسانَ قدْ نشأَ على مشهوراتٍ تخالفُ الحقَّ فاذا سلكَ بهِ نحوَ الاشياءِ التي نشأَ عليها سهلَ اقناعهُ . وامّا لانَّ فطرتهُ ليستْ معدّةً لقبولِ البرهانِ اصلاً . وامّا لانهُ لا يمكنُ بيانهُ لهُ في ذلكَ الزمانِ اليسيرِ الذي يرادُ منهُ وقوعُ التصديقِ فيهِ . فلهذا قدْ نضطرُّ الى انْ نحصلَ التصديقَ بالمقدّماتِ المشتركةِ بيننا وبينَ المخاطبِ اعني

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا الْإِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُثْبِتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الْاِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْإِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هذه الصناعة ان تقنع ولا بدّ ، اعني انه ليس يتبع فعلها الاقناع ضرورة كما يتبع فعل النجار وجود الكرسي ضرورة اذا لم يكن هنالك عائق من خارج. بل عملها هو ان تعرف جميع المقنعات في الشيء وتأتي بها في ذلك الشيء وان لم يقع اقناع. والحال فيها في هذا المعنى كالحال في صناعات كثيرة مثل صناعة الطب. فانه ليس فعلها الابراء ولا بدّ. بل انما فعلها ان تبلغ من ذلك غاية الشيء الممكن فعله في ذلك الشيء المقصود بالابراء. ولذلك قد يشارك في افعال هذه الصنائع من ليس من اهلها مثل ان يبرىء من ليس بطبيب ويقنع من ليس بخطيب لكن الفعل الحقيقي انما هو لصاحب الصناعة. وذلك ان الغاية تتبع فعل هذا على الاكثر وذلك على الاقل. وكما ان في الجدل ما هو قياس وما يظن به انه قياس وليس بقياس وهو القياس السوفسطائي كذلك في الاقاويل المقنعة المستعملة في هذه الصناعة ما هو مقنع وما يظن به انه مقنع من غير ان يكون كذلك. لكن لما كان السوفسطائي ليس انما يكون سوفسطائيا من قبل القوة والملكة التي بها يفعل الاقاويل السوفسطائية بل انما هو سوفسطائي من قبل ما يقصده بتلك الاقاويل من الكرامة والخيرات الخارجة وذلك لايهامه انه حكيم وكان الجدلي انما هو جدلي بالملكة الحاصلة له عن الصناعة فبالواجب لم تكن الاقاويل السوفسطائية جزءا من صناعة الجدل اعني التي يظن بها انها مقاييس جدلية من غير ان تكون جدلية

إِذَا ٱسْتَعْمَلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَـةِ . وَأَمَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلِامْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَـا . وَأَمَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ أَجْلِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْـلَ ٱلْكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ أَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَـاعَةِ قَدْ يَـكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَإِنَّمَـا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ إِقْنَاعُهُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ أَوِ ٱلِانْفِعَالُ فَإِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَـكُونَ حُصُولُهُ عَنْ أَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ عَنْ أَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَت بِمُقْنِعَةٍ . فَإِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ أَوِ ٱلِانْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَـةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ إِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَإِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَـيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَـةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِـهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَـةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ



البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ أَنْحَاء ٱلبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ. وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِاعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ. وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ. فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ. وَمَعْلُومٌ انَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ افْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ. وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اتَمَّ وَافْضَلَ. وَهٰذَا امْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ. وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا انْ تُثْبَتَ اجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ اَبو ٱلْاَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلْهِنْدِيِّ اَيَّامَ اَجْتَلَبَ يَحْيَى اَبْنُ خَالِدٍ اَطِبَّاءَ ٱلْهِنْدِ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْهِنْدِ. قَالَ بَهْلَة: عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا اُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ اُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَاَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ اَبو ٱلْاَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَاِذَا فِيهَا: اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ اَجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلْاُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْاُمَّةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْاَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَاِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْاَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلْاِسْتِطْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ أَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ ٱلْاِسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلْاِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) أَيْ أَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى ٱكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَأَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِأَرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ أَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاغتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف

(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ. وَمِنْهُم مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُم مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْإِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثَّرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْإِرْتَاجِ

وَٱلْإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ: إِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي ... بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلْاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلْإِرْتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) ٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيَفُلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلْإِفْحَامِ كَٱلْإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا ٱحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَاوِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَالتَّسَهُّلَ وَالْجَزَالَةَ وَالْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ الْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ الْأَلْفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ اللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضْلُ التَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِاخْتِلَافِ قُوَى النَّاسِ فِي الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ أَشْعَرَ النَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَالْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ . وَكَذٰلِكَ الْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : أَمَرَنِي الْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى النَّوَاحِي فِي الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْقَنَادِيلِ فِي الْمَسَاجِدِ . فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةً لِلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ الرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ اللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ الظُّلَمِ . فَانْتَبَهْتُ وَقَدِ انْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَابْتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَالْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ الْكَلَامِ هُوَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ الْمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي الشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا الْفَرَزْدَقُ . وَسُئِلَ

بَعضُهم عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ اَلشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ اَلْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ اَلْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِيَ مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَاُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا اَلْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى اَلْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ اَلْاُمَّةِ بِكَلَامِ اَلْاُمَّةِ وَلَا اَلْمُلُوكَ بِكَلَامِ اَلسُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ اَلْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ اَلَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ اَلرَّأْيِ وَقِلَّةُ اَلْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ اَلْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ اَلسُّوقِيَّ وَالْمَمْلُوكَ اَلْاَعْجَمِيَّ بِاَلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ اَلسَّرَاةِ. كَاَبِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ قَصَبَ اَلْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ظُبَاتِ اَلْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ اَلْمَسْحَ وَاَسْحِلِ اَلرَّشْحَ وَخَفِّفِ اَلْوَطْءَ وَعَجِّلِ اَلنَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ اَلْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو اَلْمُغَازِلِ اَلضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْاَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا اَلنِّصَاحِ وَذَاتِ اَلسَّمِّ اَلطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ اَلْخَيْفَانَةَ اَلْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا اَلْحَاسِنُ اَلْمُسَرْهَفُ (١) كَاَنَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلقَمرُ ٱلازْهَرُ يُنيرُ فِي حُضرهِ كَالخُلّبِ ٱلاَجْرَدِ (١) . فقَال ٱلخَيَّاطُ اَطْلُبُهَا فِي بَرّ لَخْلَخٍ (٢) . فقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تقُولُ قبَّحكَ ٱللهُ فَمَا اَعلَمُ رَطَانتكَ . فقَالَ : لَعَنَ ٱللهُ اَبْغَضَنَا لَفظًا وَاَخطَانَا مَنْطِقًا

وَقوْلُهُ : (وَلَا يُدقِّقِ ٱلمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدقِيق) قَالَ اَبُو هِلَالٍ : لِاَنَّ ٱلغَايَةَ فِي تَدقِيقِ ٱلمَعْنَى سَبِيلٌ اِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعمِيَةُ ٱلمَعْنَى لُكْنَةٌ اِلَّا اِذَا اُرِيدَ بِهِ ٱلاِلغَازُ وَكَانَ فِي تَعمِيَتِهِ فَائدَةٌ مِثْلُ اَثْبَاتِ (٣) ٱلمَعَانِي وَمَا يَجرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱستَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلغَرَضِ . فَاَمَّا مَنْ اَرَادَ ٱلاِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ اَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَاَتَى بِاِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلاِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلاِفْصَاحِ

وَقوْلُهُ : (وَلَا يُنقِّحِ ٱلاَلفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفظِ اَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلاِستِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلوُزَرَاءِ : اَحْسَنَ ٱللهُ اِبَانَتَكَ . فقَالَ لَهُ ٱلوَزِيرُ : عَجَّلَ ٱللهُ اِمَاتَتَكَ . وَيَدخُلُ فِي تَنقِيحِ ٱللَّفظِ ٱستِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ اَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قوْلَهُ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي ٱلقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱستَبْشَعُوا (ٱلحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلخُلُقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفظِ زُهَيْرٍ اَنْكَرُ مِنْهُ . قَالَ اَبُو عُثْمَانَ : رَاَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلكَلَامَ فَاِنْ كَانُوا اِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِاَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلّب الاخرز (٢) ويروى : في غر ملخ
(٣) وفي رواية : ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَقِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

---

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرَّد عنَّا

تَعَوَّدَ حذفَ فضولِ الكلامِ ومشتركاتِ الالفاظِ ومَنْ نظرَ في المنطقِ على جهةِ الصناعةِ فيها لا على جهةِ الاستطرافِ والتطرفِ لها) فنقولُ ينبغي ان يتكلَّمَ بفاخرِ الكلامِ ونادرِهِ ورصينهِ ومحكمهِ عندَ مَنْ يفهمهُ عنهُ ويقبلهُ منهُ ممَّنْ عرفَ المعاني والالفاظَ علماً شافياً لنظرِهِ في اللغةِ والاعرابِ والمعاني على جهةِ الصناعةِ لا كمن استطرفَ شيئاً منها ننظرَ فيهِ نظراً غيرَ كاملٍ او اخذَ من اطرافهِ وتناولَ من اطرارهِ فتحلّى باسمهِ وخلا من وسمهِ. فاذا سمعَ لم يفقهْ واذا سئلَ لم ينقهْ واذا تكلَّمَ عندَ مَنْ هذهِ صفتهُ ذهبتْ فائدةُ كلامهِ وضاعتْ منفعةُ منطقهِ. لانَّ العاميّ اذا كلَّمتهُ بكلامِ العليةِ سخرَ منكَ وزرى عليكَ. كما رُوِيَ عن بعضهم انهُ قالَ لبعضِ العامةِ: بمَ كنتم تنتقلونَ البارحةَ (يعني على النبيذِ). فقالَ: بالحمالينَ. ولو قالَ لهُ: (آيش كانَ نقلكم) لسلمَ من سخريتهِ. فينبغي ان يخاطبَ كلَّ فريقٍ بما يعرفونَ ويتجنبَ ما يجهلونَ

واما قولهُ: (مَنْ تعوَّدَ حذفَ فضولِ الكلامِ الخ) هو ان يسقطَ من الكلامِ ما يكونُ الكلامُ معَ اسقاطهِ تاماً غيرَ منقوصٍ ولا يكونُ في زيادتهِ فائدةٌ). وذلكَ مثلُ ما رُوِيَ عن معاويةَ انهُ قالَ لصحارِ العبديِّ: ما البلاغةُ فقالَ: ان تقولَ فلا تخطئَ وتسرعَ فلا تبطئَ. ثمَّ قالَ: اقلني هوانَ (لا تخطئ ولا تبطئ). فالقى اللفظتينِ لانَّ في الذي ابقى غنىً عنهما وعوضاً منهما.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْأَلْفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ) فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْإِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْأَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ أَيَّهَا أَرَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ ⁂ يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْاِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا أَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ) أَأَرَادَ أَنْ يَبْكِيَ إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ أَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَحْوَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ) . لِأَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَأَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْأَزْدِيِّ :

وَإِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ ⁂ لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) أَخَيْرًا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُودِعَ ٱلثَّرَى   بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ إِذَا أَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ إِقْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ إِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ. عَلَى أَنَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ: إِنَّ أَكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ أَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا. وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ ٱلْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْإِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

وَخَبَّ مَا يَخْبَبْنَ مِنْ آخِرٍ   مِنْهُ وَالطَّائِنَ أَمْهَارُ (١)

ٱلْأَمْهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا. وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ. وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللهِ تَعَالَى: لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْأَلْمَاسِ. أَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَأَعَابَ ٱلسَّجْعَ وَأَخْطَأَ ٱلْمَعْنَى. وَأَمَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلْإِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِآخَرَ لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ:

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس:

وخبّ ما يخبّ من بعده   منهُ والطائن امهار

لما تصفحت اخلاقك فوجدتها مباينة لمشاكلتي زائغة عن قصد طريقتي صرت عليها رياضة لنفسي على الصبر لمساوئ اخلاق المعاشرين ولهلمي بكامن العدوان في جميع العالمين. والذي رجوت من مرمة خصالك بما اقابلها به من التجاوز وانحب عن سوء آثارها اذيال التغاضي. وانت مع ذلك لا تقوم اعوجاج مذاهبك ولا يعطف بك الرأي على رشدك. فلما فنيت حيلتي فيك وانقطعت اسباب املي منك ورأيت الداء لا يزيد على التعهد بالدواء الّا فسادا والخرق على الترقيع الّا اتساعا قدمت اليأس منك على الرجاء فيك فاحتسبت ايامي السالفة في استصلاحي لك

وقوله: (وحق المعنى ان يكون له الاسم طبقا) اي يكون الاسم طبقا للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه ولا ناقص عنه فكان كالطبق على الاناء لا ينقص منه شيء

وقوله: (ولا يكون الاسم فاضلا ولا مقصرا) فهذا داخل في الاول من قوله: وحق المعنى ان يكون له الاسم طبقا. ومثال الفاضل من اللفظ عن المعنى قول عروة بن اذينة:

وَاسقِ العَدُوَّ بكأسِهِ واعلَمْ لَهُ ... بالغَيبِ انْ قد كانَ قبلُ سَقاكَها
وَاجزِ الكرامةَ مَن ترى انْ لو لَهُ ... يوماً بذلتَ كرامةً لجزاكَها

ومعنى هذا الكلام محصور تحت ثلاث كلمات: اجز كلا بفعله. وكان السكوت لعروة خيرا منه. ومن الكلام الفاضل عن معناه قول ابي العيال الهذلي.

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ
فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ إِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدَّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْأَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى إِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ ٱلْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ ٱلْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْأَنْصَافَ وَٱلْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلأَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِٱحْتِجَاجِ بِٱلأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلإِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي ارسطو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهِمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدِّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخِطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلْاِنْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ (١) وَذَٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, moeurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اجلِ انَّهُ مَعلُومٌ انَّ ٱلاَشيَاءَ ٱلمَنسُوبَةَ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصدِيقُ وَٱلاعتِرَافُ مِنَ ٱلمُخَاطِبِ بِٱلشَّيءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعوَى وَذٰلِكَ لا يَكُونُ إِلَّا بِتَثبِيتِ ٱلشَّيءِ عِندَ ٱلمُعتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ انَّا إِنَّمَا نَعتَرِفُ بِٱلشَّيءِ ٱلَّذِي رَأَينَا انَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِندَنَا وَٱلشَّيءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلاَشيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اصلُ ٱلتَّصدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحوَ مِنَ ٱلتَّصدِيقِ اعنِي ٱلتَّصدِيقَ ٱلبَلاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوعٌ مِنَ ٱلقِيَاسِ وَمَعرِفَةُ ٱلقِيَاسِ جُزءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ فَقَدْ يَجِبُ انْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلمَنطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي اجزَاءٍ مِنهَا. وَبَيِّنٌ انَّ ٱلَّذِي يَعرِفُ ٱلقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيءٍ يَلتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اقدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ انْ

---

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرفَ ٱلقياسَ ٱلّذي هُوَ جنسُهُ . وَٱلّذي يَزيدُ عَلَى هٰذا فيَعلَمُ لِماذا تُعمَلُ ٱلضّمائرُ وَٱلفُصولُ ٱلّتي بَينَ ٱلضّميرِ وَبَينَ سائرِ ٱلمَقاييسِ ٱلّتي تُستَعمَلُ فِي ٱلصَّنائعِ ٱلأُخَرِ فَهُوَ اقدَرُ مِن ذَينِكَ . وَٱلمَعرِفَةُ بِهٰذا كُلِّهِ انّما هُوَ لِصناعةِ ٱلمَنطِقِ . فَإنَّ لِلقُوَّةِ ٱلواحِدَةِ بِعَينِها اعني لِلصِّناعَةِ ٱلواحِدَةِ بعينِها انْ تَعرِفَ ٱلشَّيْءَ ٱلّذي هُوَ حَقٌّ وَٱلّذي هُوَ شَبيهٌ بِٱلحَقِّ وَٱلتَّصديقاتُ ٱلخُطَبيَّةُ وَإنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَبيهَةٌ بِٱلحَقِّ وَايضًا فَإنَّ ٱلنّاسَ مُتَهَيّئونَ بِطَبيعَتِهِم كُلَّ ٱلتَّهيِئَةِ نَحوَ ٱلوُقوفِ عَلَى ٱلحَقِّ نَفسِهِ . وَهُم اكثَرُ ذٰلِكَ يَؤُمّونَهُ وَيَنفَعونَ عَنْهُ . وَٱلمَحمُوداتُ وَهِيَ ٱلّتي تَكونُ مِنها ٱلضَّمائرُ شَبيهَةٌ بِٱلحَقِّ مِن قِبَلِ انّها نائبَةٌ عِندَ ٱلجُمهورِ مَنابَ ٱلحَقِّ . وَٱلشَّبيهُ بِٱلحَقِّ قَد يَدخُلُ فِي عِلمِ ٱلحَقِّ ٱلّذي هُوَ عِلمُ ٱلمَنطِقِ . وَإذا كانَ ٱلأمرُ هٰكَذا وَقَدِ ٱستَبانَ انَّ قُصورَ هؤُلاءِ فِيما تَكَلَّموا فيهِ مِن امرِ ٱلخَطابَةِ إنّما كانَ مِن اجلِ انَّهُ لَم يَكُن عِندَهُم عِلمٌ بِٱلمَنطِقِ وَانَّ سائرَ مَن تَكَلَّمَ فِي ٱلخَطابَةِ وَمَن يَستَعمِلُ ٱلأقاويلَ ٱلخُطَبيَّةَ فَقَط مِن غَيرِ انْ يَتَقَدَّموا فَيَعرِفوا هٰذهِ ٱلأشياءَ ٱلّتي هِيَ عَمودُ ٱلبَلاغَةِ إنَّهُم إنّما يَتَكَلَّمونَ فِي اشياءَ تَجري مِنَ ٱلبَلاغَةِ مَجرَى ٱلتَّزيينِ وَٱلتَّنميقِ ٱلّذي يَكونُ فِي ظاهِرِ ٱلشَّيْءِ وَصَفحَتِهِ لا فِي ٱلأشياءِ ٱلّتي تَتَنَزَّلُ مِنها مَنزِلَةَ ما بِهِ قِوامُ ٱلشَّيْءِ وَوُجودُهُ وَإنْ كانَ قَد يُظَنُّ بِما فَعَلوا مِن ذٰلِكَ انَّهُم قَد بَلَغوا ٱلغايَةَ مِنَ ٱلأقاويلِ ٱلإقناعيَّةِ وَجَرَوا فِي ذٰلِكَ عَلَى طَريقِ ٱلصَّوابِ وَٱلعَدلِ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوَصِّلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال: (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقًا بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل به اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

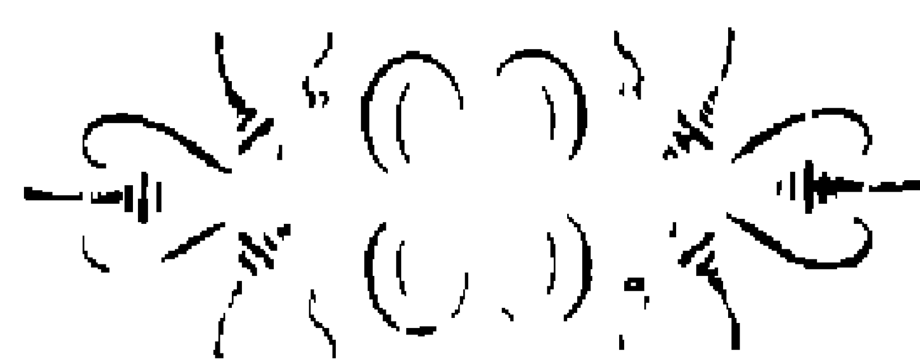
(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلَّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَأَتِّيهَا لِأَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقَلَّ عُمُومًا كَانَ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ أَعْنِي ٱلْإِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْس

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لميًا

تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطْبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطْبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ ذٰلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ ٱلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا إِلَى خَارِجٍ إِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا ٱلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلطَّرِيقُ ٱلْمُوصِلُ إِلَى ٱلْمَطْلُوبِ ٱلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا أَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا أَيْضًا عِنْدَ ٱلْأُصُولِيِّينَ. وَذَلِكَ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ ٱلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ ٱلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَلْزُومَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِٱللَّوَازِمِ فَإِنَّ ٱلِٱكْتِسَابَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلنَّظَرِ. وَقَالَ ٱلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي ٱلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ٱلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ ٱلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَإِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ ٱلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ: إِنَّ ٱلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ ٱلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ وَٱلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْحَيَوَانِ ٱلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِٱلْخَاصَّةِ وَحْدَهَا أَوْ بِهَا وَبِٱلْجِنْسِ ٱلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلضَّاحِكِ أَوْ بِٱلْجِسْمِ ٱلضَّاحِكِ أَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ: إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ. وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ. فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ. وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ: (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ وَلَا يُعَرَّفَ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسبب لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله. (ولا يعرف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك: الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة. (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز). (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ إِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . أَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ أَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ . وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَإِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كُلِّيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا .

اي لو لا كونه مساويًا (لدخل فيه غير المعرّف) على تقدير كونه اعمّ مطلقًا او من وجه (فلم يكن مانعًا) من دخول غير المعرف فيه (و) لا (مطردًا) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليه المعرّف ايضًا. (او خرج عنه بعض افراده) على تقدير كونه اخص اما مطلقًا او من وجه (فلم يكن جامعًا) لجميع افراد المعرّف (و) لا (منعكسًا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها. . . (ولا بد فيه) اي في المعرّف (من مميز مساوٍ لمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًا سمي) المعرّف (حدًّا) (والا سمي رسمًا. وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامّ) إمّا حد تامّ مركب من الجنس والفصل القريبين وامّا رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) امّا حد ناقص سواء كان الفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كلي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بيّنة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكلي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريف (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذُكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركَّب يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا . . .

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً . ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ . وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ . وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام تحصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصًا فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل . (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم . (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره . (وبالجملة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه بصدد الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ أَوْ فِي ٱلْعَقْلِ . وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ . وَإِمَّا إِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ . وَٱلْكُلِّيُّ أَيْضًا إِمَّا جِنْسٌ أَوْ نَوْعٌ أَوْ فَصْلٌ أَوْ خَاصَّةٌ أَوْ عَرَضٌ عَامٌّ . وَيُقْسَمُ أَيْضًا إِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ أَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ أَوْ جُزْئِيَّيْنِ أَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي أَرْبَعٍ : ٱلْمُسَاوَاةُ . وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا . وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ . وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ أَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا . وَإِنْ تَصَادَقَا فَإِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَإِلَّا فَإِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ أَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا : (أَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ . (وَأَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا أَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذَاكَ ٱلصِّدْقُ أَوْ لَا

وَٱعْلَمْ أَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ . وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَإِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ . فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ

ٱلأَنواعِ فيجعلهُ جنسًا تعظيمًا لهُ وتفخيمًا لأَمرهِ بعد ان يحصر جميع أقسامهِ. والمُرادُ عندهم بالنوعِ أعمُّ من ان يكونَ صادقًا على متعددٍ ذهنًا كما هو النوعُ المعهودُ عند علماءِ المنطقِ او لا يصدقُ الَّا على فردٍ واحدٍ كالجزئيِّ المعروفِ عندهم. والمرادُ بالكليِّ الجنسُ وهو ما صدقَ على متعددٍ اختلفت حقيقةُ أفرادهِ. ومثالُ ذلكَ عندهم كقولِ المتنبي :

هيَ الغرضُ الأقصى ورؤيتُكَ المُنى
ومنزلُكَ الدُّنيا وانتَ الخلائقُ

فقد قصد تعظيم ممدوحهِ فجعل منزلهُ الذي هو جزئيٌّ كليًّا وهو الدنيا وجعل ذاتهُ التي هي جزئيةٌ كليةً وهي الخلائقُ. وامَّا حصرُ أقسامِ الجزئيِّ فلأنَّ العالمَ عبارةٌ عن حيوانٍ ونباتٍ وجماد. والمنزلُ شاملٌ لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسية واعجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

الجنسُ في اللغةِ الضربُ في كلِّ شيءٍ وهو أعمُّ من النوعِ. يُقالُ : الانسانُ نوعٌ والحيوانُ جنسٌ. ويُرادُ بهِ عند أهلِ العربيةِ الماهيةُ. وكلُّ ما دلَّ على شيءٍ وعلى كلِّ ما أشبههُ وبالنظرِ الى

هٰذَا قِيلَ اسْمُ الْجِنْسِ اسْمٌ مَوضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَالْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِالْأَغْرَاضِ دُونَ الْحَقَائِقِ . وَقِيلَ ايضًا . الْجِنْسُ هُوَ الْمَقُولُ عَلَى افْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ وَالْأَحْكَامِ . وَالنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى افْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ وَالْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِالْعَدَدِ فَقَطْ كَالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا اُطْلِقَ الْجِنْسُ عَلَى الْأَعَمِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ اوْ نَوْعًا . كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ الْجِنْسَ يُقَسَّمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنِ الْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ الْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ الْجَوَابُ ذٰلِكَ الْجِنْسَ فَقَطْ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْفَرَسِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ الْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ الْجَوَابُ هُوَ غَيْرَهُ كَالْجِسْمِ النَّامِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَالنَّبَاتَاتِ . . وَالْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَالْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْمُفْرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعضد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعِلِّيَّةَ وَٱلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلإِمكَانِ وَٱلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلْمُحْتَاجُ اِلَيهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ ٱلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلْمَادَّةُ. وَلَهَا اسْمَاءٌ بِٱعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا ٱلصُّوَرُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاِسْطَقِسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلمُرَكَّبِ ... وَٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ . امَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلحَطَبِ للاحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلحَطَبِ بِٱلإِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا . وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ . عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَا سِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا . وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ : إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذَاكَ . قَالَ : يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِأَمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِاسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا . فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا . (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ . وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ :

ٱلقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلفِعْلُ وَٱلفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَالَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلكَلَامُ لَغْوًا وَٱلغَرَضُ ٱلمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنَّ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱليَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلحَسَنِ

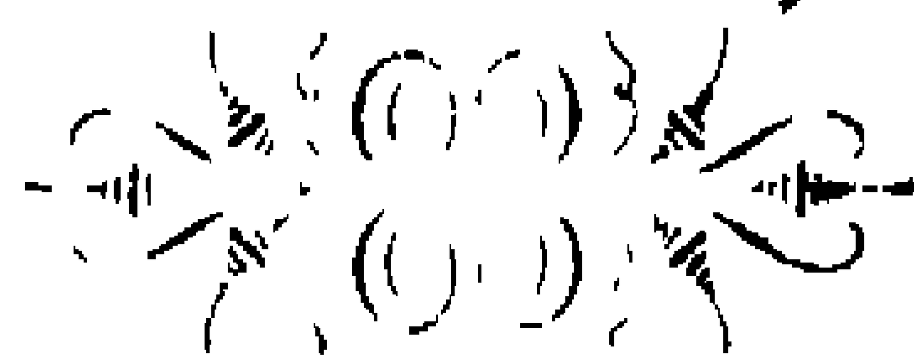
ٱبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عَقِبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي
أَنْتَ رَبِّي وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدِكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ. وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا ٱعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لَوْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ. وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَامِعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ



البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والعرالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ : ٱسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ : ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عَدَاوَةُ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقَ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ : مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ . وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ :

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلٰكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذٰلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمَحِّضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ ... وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ ... بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا ... تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ ... فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَالِمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ ... فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ:

وَقَدْ يُحْكِمُ ٱلْأَيَّامَ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ٱلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلانسَانِ. وَٱلغَلْوَةُ ٱلأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلإِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَنْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْذُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلأَذَى. وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا. وَٱلغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلأَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلأَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ إِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ. وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِٱنْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْأَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْأَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي. فَتَشْمُلُهُ شَمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْأَفْرَاحِ. وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْأَقْدَاحِ. فَيَبْسِمُ مَدَى ٱلْأَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ. اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ. وَمُحْتَفًّا بِأَوْهَامِ ٱلْأَعْمَالِ. وَلَا يَنْظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ. وَهٰكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ. وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ. اِلَى اَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ. وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْأَمَلِ. حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْأَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. مُنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَأَهْوَائِهِ. مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ. وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِّ. وَتَشِبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ. وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْأَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ وَٱلْأَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْأَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اَوْجِ ٱلْأَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِدْثَانِ. وَمُسْتَقِطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنْثُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَصْفَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَدْرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدُّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنَهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَضْمُرُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكِفُّ بَصَرُهُ. وَيَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِأَنْفَاسٍ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلنَّفَاسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. امَّا اِذَا الْتَفَتَ اِلَى الْاَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْاَيَّامِ. حَنَّ اِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلُبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَامْنِيَّةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الْخَطِيبَ اِذَا مَا ارَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي اُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ احْوَالِهِمْ. قَالَ افْلَاطُونُ: لِكُلِّ امْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ اِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْاُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اهلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْاِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ. عَلَى انَّهُ لَا يَعُمُّ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لا يُمكِنُهُ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ اَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ اَحْوَالَهَا وَاَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعْظَمَ مَثَلًا وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً اَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ . اِذْ لَيْسَ فِي اَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِاسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ اَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ اَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَاَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَاهَى اِلَيْهِ مِنْهَا وَاَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا . ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْاَشْخَاصِ

النّاس قوّتين احداهما ناطقة والأخرى بهيمية ولكلّ واحدة منهما نزاع غالب. فنزاع القوّة البهيمية نحو اللّذات العاجلة الشهوانية مثل انواع الغذاء ونزاع القوّة الناطقة نحو الأمور المحمودة العواقب.. فعلى كلّ من يرشد الجمهور ويحضّهم على نيل الفضائل ان لا يتغافل عن تحريضهم على ما هو اصلح لهم وان لا يهملهم فانه متى ما اهملهم تحرّكوا نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي. واذا تحرّكوا نحوه تشبّثوا ببعض منه حتى اذا اراد ردّهم عمّا تحرّكوا نحوه لحقه من النصب اضعاف ما كان يلحقه اذا لم يكن اهملهم. ونقول ايضاً ان الخطيب لا ينبو في جميع متصرّفاته من ان يلقى الجمهور مائلاً الى امر محمود او امر مذموم. وله في كلّ واحد من الأمرين فائدة وموضع رياضة للتصرّف وهو ان يحاول دفع السامعين الى ذلك الامر المحمود الذي يلقاه ان وجد السبيل الى الدفع اليه وينبّههم على فضيلته ويوجب عليهم التمسّك بها متى وجد الفرصة لذلك. واذا يلقاه الأمر المذموم فيجتهد في التحذير منه والتجنيب منه. وان لم يجد الى ذلك سبيلاً فلينبّههم على الاعتبار بمن نالهم مضارّ مثلها. فقد ظهر انّ للخطيب في جميع احواله جلّها ودقّها خيرها وشرّها موضع الرياضة لنفسه وارشاد الجمهور. واذا تيقّن ذلك فينبغي ان يقدم على سياسة الاحوال بقلب قوي ونيّة صادقة وصدر واسع وثقة انّ ما يأتيه من ذلك وان قلّ يجدي عليه نفعاً يجلّ. ونبدأ بتعهد الخطيب للرؤساء انه

يجب عليه أن يكون ملازما لما هو في صدده مواظبا على ما فوض اليه ولا يخشى الملال وخصوصا من الملوك. وأن يكون مجتهدا في طلب وجوه حسان لكل ما يطالبه منهم إذ لا شيء من الأمور في العالم الا وله وجهان أحدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل أمر من أموره وجها جميلا يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان أراد المرء أن يواجهه أهلك نفسه وأتى عليه السيل فأغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه إلى الناحية بأن يطرح في بعض جوانبه مقدارا من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب أن يصرفه إلى حيث شاء. فينبغي له كذلك أن يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن أمر يريد أن يجري معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه إلى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار.. وينبغي أن يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بأن لا يلح في السؤال ولا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في أن يطلب من الرؤساء أسباب المنافع لا المنافع أنفسها.. وليجتهد في أن يظهر في كل ما يقول ويفعل أنه انما يفعله زينة وجمالا للرئيس لا لنفسه وأنه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأتيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ ٱلْحَالُ بُرَادِهِ . . وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمْ ٱلِاسْتِخْدَامَ وَٱلِاسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ ٱلْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ ٱلنَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِٱسْتِعْمَالِهَا ٱلْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا ٱلْمَرْءُ مَعَ ٱلْأَكْفَاءِ وَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ ٱلْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَٱلْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلْأَصْفِيَاءُ ٱلْمُخَاصُونَ فِي ٱلصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِيءُ ٱلْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ ٱلْجُهْدِ فَإِنَّ ٱلصَّدِيقَ زَيْنُ ٱلْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ . وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ أَيِ ٱلْأَصْدِقَاءُ فِي ٱلظَّوَاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱسْتِمَالَتِهِمْ وَٱلصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ ٱلظَّاهِرِ

دُونَ اَخْذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مَهْمَا عُمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ اَلْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا اَلْاَكْفَاءُ اَلْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ اَلنَّاسِ اَلَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ اَلنُّصَحَاءُ اَلَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ اَلتَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ وَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ اَلصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ اَلْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ اَلصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ اَلنَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى اَلْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ اَلنَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ اَلْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ اَلنِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ اَلسُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى اَلْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ اَلسَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْأَسُوا مِنْ مُنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ اَلْاِكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ اَلْكِبْرِ وَاَلْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ اَلتَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ اَلْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذَٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُؤَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

انَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ ٱلْإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. وَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّرِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذَلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذَلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلْاحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلْاِفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلْاِنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلْاِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَابِهَا (١) وَذَلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

إذا نُبه عليه احسَّ بقبحه فربما حمل نفسهُ على تركه . ومنهم من إذا تنبّه إلى ما فيه من النقائص او نُبه عليها ورام العدول عنها تعذّر عليه ذلك ولم يطاوعهُ طبعهُ ولو كان مؤثرًا للعدول عنها مجتهدًا في ذلك . وهذه الطائفة تحتاج ان ترشد الى طريق التدرب والتعلم بالعادات المحمودة حتى تصير اليها على التدريج . ومن الناس من اذا تنبّه على الاخلاق الرديئة او نُبه عليها فلا يحنّ الى تجنبها ولا تسمح نفسهُ بمفارقتها بل يؤثر الاصرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها وهذه الطائفة ليس الى تهذيبها طريق الّا بالقهر والعقوبة ان لم يردعها التخويف والترهيب . فامَّا الاخلاق المحمودة فانها وان كانت في بعض الناس غريزيّة فليست في جميعهم فعلى الباقين ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ويرتقوا اليها بالاعتياد والتألف وقد يوجد في بعض الناس من لا يقبل طبعهُ العادات الحسنة ولا الاخلاق الجميلة وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره . وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يُرجى صلاحهم . وكثير من الناس من يقبل كثيرًا من الاخلاق المحمودة ويأنف طبعهُ عن بعضها فلا يعدّ هذا شريرًا بل تكون رتبتهُ في الخير والتهذيب بحسب محاسنه



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق ليحيى بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَّا ٱلاخْلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ منْهَا (ٱلعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى ٱلاكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اوَدَ ٱلْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقط وَٱجْتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصْدِ ٱلاعْتِدَالِ . وَانْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلوَجْهِ ٱلْمُسْتَحَبِّ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَى ٱلارْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اوْقَاتِ ٱلحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى ٱلقَدْرِ ٱلَّذِي لَا يُحْتَاجُ إِلَى اكْثَرَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلعِفَّةِ

(وَمِنْهَا ايضًا ٱلقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلاقْتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلعَيْشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلمَعَاشِ وَتَرْكُ ٱلحِرْصِ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلامْوَالِ وَطَلَبِ ٱلمَرَاتِبِ ٱلعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَإِيثَارِهِ وَٱلمَيْلِ إِلَيْهِ وَقَهْرِ ٱلنَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلتَّقَنُّعِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلخُلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ اوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاصَاغِرِهِمْ فَامَّا ٱلمُلُوكُ وَٱلعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ . فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلتَّخْفِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ إِذْ لَا أُبَّهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيَفْحُشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِانْقِبَاضُ عَنْ أَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِشْرَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْإِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ أَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ ٱلْإِكْثَارَ مِنْ ذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ ٱسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِانْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ وَهٰذَا ٱلْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ثَلْمِ جَاهٍ أَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلِانْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَبَثِ وَكَثْرَةِ ٱلْإِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِصْغَاءُ عِنْدَ ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ أَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِانْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ أَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلوُدُّ) وَهُوَ ٱلمَحَبَّةُ ٱلمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ إِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلوَقَارِ وَٱلأُبَّهَةِ وَٱلمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَأَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى أَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَأَهْلِ ٱلخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلفَضَائِلِ وَهُوَ أَوْثَقُ ٱلوُدِّ وَأَثْبَتُهُ فَأَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ أَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلوُدِّ وَٱلجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خَلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ إِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِأَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ إِلَى ٱلجَوْرِ وَإِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلقَاتِلِ عِنْدَ ٱلقَوَدِ وَٱلجَانِي عِنْدَ ٱلقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ أَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا أَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ أَبْلَغَ فِي ٱلوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

اَلْجَاهِ اِلَّا اَنَّ اَنْتِفَاعَ اَلْمُلُوكِ بِهَذَا اَلْخُلُقِ اَنْفَعُ وَحَاجَتَهُمْ اِلَيْهِ اَشَدُّ لِاَنَّهُ مَتَى عُرِفَ مِنْهُمْ قِلَّةُ اَلْوَفَاءِ لَمْ يُوثَقْ بِمَوَاعِيدِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّ اَغْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنْ اِلَيْهِمْ جُنْدُهُمْ وَاَعْوَانُهُمْ

(وَمِنْهَا اَدَاءُ اَلْاَمَانَةِ) وَهُوَ اَلتَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ اَلْاِنْسَانُ فِيهِ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ وَمَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ اَلْاَعْرَاضِ وَاَلْحُرَمِ مَعَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَرَدِّ مَا يُسْتَوْدَعُ اِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كِتْمَانُ اَلسِّرِّ) وَهَذَا اَلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ اَلْوَقَارِ وَاَدَاءِ اَلْاَمَانَةِ. فَاِنَّ اِظْهَارَ اَلسِّرِّ مِنْ فُضُولِ اَلْكَلَامِ. وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْفُضُولِ وَاَلْفُضُولِيُّ نَاقِصُ اَلشَّرَفِ. فَكَمَا اَنَّ مَنِ اَسْتُودِعَ مَالًا فَاَخْرَجَهُ اِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ قَدْ حَقَرَ اَلْاَمَانَةَ كَذَلِكَ مَنِ اَسْتُودِعَ سِرًّا فَاَخْرَجَهُ اِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَرَ اَلْاَمَانَةَ اَيْضًا. وَكِتْمَانُ اَلسِّرِّ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَصْحَبُ اَلسُّلْطَانَ وَاَوْلِيَاءَ اَلْاُمُورِ فَاِنَّ اِخْرَاجَهُ اَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُؤَدِّي اِلَى ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا اَلتَّوَاضُعُ) وَهُوَ تَرْكُ اَلتَّرَؤُّسِ وَاِظْهَارُ اَلْخُمُولِ وَكَرَاهِيَةُ اَلتَّعْظِيمِ وَاَلزِّيَادَةِ فِي اَلْاِكْرَامِ وَاَنْ يَتَجَنَّبَ اَلْاِنْسَانُ اَلْمُبَاهَاةَ بِمَا فِيهِ مِنَ اَلْفَضَائِلِ وَاَلْمُفَاخَرَةَ بِالْمَالِ وَاَلْجَاهِ وَاَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ اَلْاِعْجَابِ وَاَلْكِبْرِ. وَلَا يُحْمَدُ اَلتَّوَاضُعُ اِلَّا مِنْ اَكَابِرِ اَلنَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَاَهْلِ اَلْفَضْلِ وَاَلْعِلْمِ وَاَمَّا مَا سِوَى هَؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ بِالتَّوَاضُعِ لِاَنَّ اَلضَّعَةَ هِيَ مَحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَّضِعِينَ

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلْإِغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْاوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ الى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ أَخْطَارًا وَأَحْوَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذًا مِنْ أَخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَٱلاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ . فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ. وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحُرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحُرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق ليحيى بن عدي)

فأمّا الأخلاق الرديئة التي تعدّ نقائص ومعائب فانّ منها الفجور وهو الانهماك في الشهوات والاستكثار منها وايثار اللذات والادمان عليها وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها وبالجملة السرف في جميع الشهوات. وهذا الخلق مكروه جدًّا يهدم الحياء ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة

(ومنها الشره) وهو الحرص على اكتساب الاموال وجمعها وطلبها من كل وجه ولو قبح طريق اكتسابها والمناوشة عليها والاستكثار من القنية وادخار الاعراض. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس الا من الملوك والحكام فانّ كثرة الاموال والذخائر والاعراض تعينهم وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم واعوانهم واعدائهم واضدادهم

(ومنها التبذل) وهو اطراح الحشمة وترك التحفظ والاكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف والهزل والفحش والتفوه بالخنا وذكر الاعراض والمزح والجلوس في الاسواق وعلى قوارع الطرق والتكسب بالمعايش الزرية والتواضع

للسُّفلاء وهذا الخلق قبيح بجميع الناس

(ومنها السفه) وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الأمور والمبادرة في البطش والإيقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة وإظهار الجزع من أدنى ضرر والسب الفاحش. وهذا الخلق مستقبح من كل أحد إلا أنه بالملوك والرؤساء أقبح منه بغيرهم

(ومنها الخرق) وهو كثرة الكلام والحركة من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة إلى الأمور من غير توقف وسرعة الجواب وهذا الخلق مستقبح من كل أحد وهو بأهل العلم وذوي النباهة أقبح. ومن قبيله قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه والمجاهرة بالأجوبة الغليظة الفظة المستشنعة وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار

(ومنها الهوى) وهو إفراط الحب والسرف فيه. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش وكثرة التبذل وقلة الحياء وهو يشين الإنسان كثيرا

(ومنها القساوة) وهذا الخلق مركب من البغض والشجاعة وهو التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى. وهذا الخلق مكروه من كل أحد إلا من الجند وأصحاب السلاح والمتولين الحروب فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه

(ومنها الغدر) وهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به. وهذا الخلق مستقبح إن كان لصاحبه فيه مصلحة

وَمَنفعة. وهُوَ بِالْمُلوكِ وَالْحكّامِ اقبحُ وَاضرُّ فإنَّ من عُرِفَ منهم بالغدرِ لم يَركنْ اليهِ احدٌ ولم يثقْ بهِ انسانٌ فاذا كانَ كذلكَ فسدَ نظامُ مُلكهِ

(وَمنها الخيانة) وهيَ الاستبدالُ بما يُؤتَمنُ الانسانُ عليهِ من الاموالِ وَالاعراضِ وَالحرمِ وتملّكُ ما يُستَودعُ ومجاحدةُ مُودعِهِ . ومنَ الخيانةِ ايضاً طيُّ الاخبارِ اذا نُدبَ الانسانُ لتأديتها وتحريفُ الرسائلِ اذا حملها وصرفُها عن وجهها . وهذا الخُلقُ اعني الخيانةَ مكروهٌ من جميعِ الناسِ ويثلمُ الجاهَ ويقطعُ وجوهَ المعاش

(وَمنها افشاء السرّ) وهذا الخُلقُ مُركّبٌ من الخُرقِ وَالخيانةِ فانهُ ليسَ بموثورٍ من لم يضبط لسانهُ ولم يتسعْ صدرُهُ لحفظِ ما يُستَسرُّ بهِ والسرُّ احدُ الودائعِ وافشاؤُهُ نقيصةٌ على صاحبهِ فالمُفشي بالسرّ خائنٌ وهذا الخُلقُ قبيحٌ جدًّا وخاصةً بمن يصحبُ الملوكَ واولياءَ الامورِ ويتداخلُ معهم . ومن قبيلِ افشاءِ السرِّ ايضاً الغيبةُ والنميمةُ وهيَ ان يبلغَ انسانٌ انساناً عن آخرَ قولاً مكروهاً وهذا الخلقُ قبيحٌ جدًّا ولو لم يُستَسرَّ ايضاً بما يسمعُهُ او يبلغُهُ فنقلُهُ الى من يكرَهُ قبيحٌ لأنَّ في ذلكَ ايقاعَ وحشةٍ بينَ المبلِّغِ والمبلَّغِ عنهُ وذلكَ غايةُ الشرِّ

(وَمنها الكِبْرُ) وهوَ استعظامُ الانسانِ نفسَهُ واستحسانُ ما فيهِ منَ الفضائلِ والاستهانةُ بالناسِ واستصغارُهم والترفعُ على ما يجبُ التواضعُ لهُ . وهذا الخُلقُ مكروهٌ جدًّا ومضرٌّ بصاحبهِ لأنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغَضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةَ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةَ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا . (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُبْغِضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْجُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ ٱلْمَخَاوِفِ وَتَمَكُّنُهَا فِي ٱلْعَقْلِ بِدُونِ طَائِلٍ وَعَدَمُ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللُّزُومِ وَٱلرُّعْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَوِي ٱلْأَمْرِ عِنْدَ ٱلْإِقْتِضَاءِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْجُنُودِ وَأَصْحَابِ ٱلْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلْحَسَدُ) وَهُوَ ٱلتَّأَلُّمُ مِمَّا يَرَاهُ ٱلْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْإِجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ ٱلْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا ٱلْجَزَعُ عِنْدَ ٱلشِّدَّةِ) وهذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْجُبْنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا اذَا لَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا نَفعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ لِلْحِيلَةِ عِنْدَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلشِّدَّةِ أَوْ لِٱسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ أَوِ ٱجْتِلَابِ مُعِينٍ لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا صِغَرُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَقُصُورُ ٱلْآمَالِ عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَاتِ وَٱسْتِكْثَارُ ٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱسْتِعْظَامُ ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْعَطَايَا وَٱلْإِعْتِدَادُ بِذٰلِكَ وَٱلرِّضَى بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلْإِعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْجَوْرُ) وَهُوَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ كَأَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا ٱلْحَلَالِ وَٱلْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ ٱلْحُقُوقِ وَفِعْلِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى ٱلْقَدْرِ

ٱلَّذِي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُنْتَحَبُ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذَٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلْإِزْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَأَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيُوخُ وَاهلُ ٱلعِلمِ وَخَاصَّةً ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ ٱلدِّينِ فَانَّ ٱلتَّصَنُّعَ بِٱلزِّينَةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنهُمْ وَٱلْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ ٱلْخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ ٱلصَّلَاةِ

(ومنها المجازاة عَلَى ٱلْمَدحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمدَحُ ٱلْإِنْسَانَ وَيَشكُرُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمَحَافِلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدعُو ٱلْمَادِحَ إِلَى ٱلِازْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكتَسِبُ ٱلْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى ٱلدَّهْرِ.وَمِنْ فَضَائِلِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ ٱلْجَمِيلِ. وَامَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ ٱلْمَدْحِ مِنَ ٱلْمَادِحِ مواجهة فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلملقِ وَحبُّ ٱلْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَامَّا إِيثَارُهُمُ ٱنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَنَاوُلَ ٱلنَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ ٱلْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَمَنْعُهُم مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبقَى ايضًا إِلَى ٱلدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ. اَمَّا اصَاغِرُ ٱلنَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ ٱلْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِانَّ ٱلمادِحَ إِذَا مَدَحَ ٱلدَّنِيءَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا اجَازَهُ اعْتَقَدَ انهُ اخَذَ مِنْهُ تِلْكَ ٱلْجَائِزَةَ بِٱلْحِيلَةِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ إِلَى مُجَازَاةِ ٱلْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا ٱلشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ إِلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَاهلِ ٱلْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اجْمَلَ بِهِمْ وَالْيَقَ

(وَمِنْهَا ٱلزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْإِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِاكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ: فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِادِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطُنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرًا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا وقيرًا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الحميدة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادت فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معايبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلأَمْوَالِ فَٱلفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِن شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ. وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ. فَيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ. فَٱلخَلِيقُ بِٱلإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلقَوْلِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُعَظَّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلأَخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وبما انّ الراغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه اذا نُبِّه على خلق مذموم وُجد فيه وأحبّ اجتنابه ربما صعب عليه الانتقال عنه من اوّل وهلة وربما لم ينل التخلّص منه ولم يطاوعه طبعه او ربما استحسن ايضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه وآثر التخلّق به لم تسمح له عادته ولم يصل الى مراده. لذلك وجب ان نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدرّبون بها ويتدرّجون فيها حتى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنّب الاخلاق القبيحة والتفرغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتعمّل لاعتيادها لكي يمكن للراغب ان يتخلّق بها فنقول:

انه لامر مقرّر انّ سبب اختلاف الاخلاق في الناس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم وهي الشهوانيّة والغضبيّة والناطقة وانّ اصلاح الاخلاق هو تذليل الشهوانيّة منها والغضبيّة وتمييز

(*) اعلم ان ما يقوله هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيره. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور مفوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ ٱلمَحمُودِ مِنْ افعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِاستِعمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

امَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ إِلَى قَمعِهَا انْ يَتَذَكَّرَ ٱلإِنسَانُ فِي اوقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ إِلَى لَذَاتِهِ انَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفسُهُ إِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُستَحسَنٌ مِنْ جِنسِ تِلكَ ٱلشَّهوَةِ وَيَتَّفِقُ عَلَى ارتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ. فَإِنْ لَمْ تَنكَسِرْ شَهَوَاتُهُ يَعِلُّهَا وَيَعِدُهَا فَإِنْ سَكَنَتِ انتَصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ الفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. فَانَّهُ اذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَاذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ الِفَتْ هٰذِهِ ٱلعَادَةِ وَتَانَّسَتْ بِهَا وَٱستَوحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنبَغِي لِمَنْ ارَادَ قَمعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ انْ يُكثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاهلِ ٱلعِلمِ. فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءُ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعرُوفًا بِالعِفَّةِ وَيَستَزرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ إِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوقِهِمْ لِئَلَّا يَستَزرُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقَ بِرُتبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ. وَيَنبَغِي لَهُ ايضًا انْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ. وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَنْ يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَةِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ. وَاكثَرُ مَا

يجب له ان يتجنب السكر فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها . وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة . . . اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع الم الجوع . وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة . والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه . . . وطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى اي شيء وجده من المآكل فان كان المشتهى الذي تاقت نفسه اليه حلوا فالا اي حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالا ما يشتهيه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغي لمن احب العفة ان يكون ابدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا جاعلا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره . فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها . فهذا هو طريق رياضة النفس

إلى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة

فأما النفس الغضبية فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على أخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فإنه يشاهد إذ ذاك منظرًا شنيعًا يأنف منه الخاص والعام وأن يتذكر في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب إخوانه وأودائه في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من أولئك. فإنه إذا تفكر فيما كان استخفه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالإقدام عليه من السب والوثوب فإن لم يكف بالكلية قصر ولم ينته إلى غاية الفحش

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يتذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه أو يتجنى عليه أنه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق أن يقابل به على جنايته وأنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية وذلك الأذى يسير جدًا فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائمًا وجعله ديدنًا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع إليه الغضب لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد إليه وإذا استمر على هذا

ٱلْعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلْحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلْقَلْبِ وَتُغَلِّظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلْوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْفِكْرَ وَلَا يُقْدِمَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلْفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلْفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلْغَضَبِ وَٱلِٱنْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ أَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلْكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلْقُوَّةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمْكَنَهُ أَنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَخْفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيضًا مُجَالَسَةُ أَهلِ ٱلعِلمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقتِدَاءُ بِأَخلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصحَابُ عُلُومِ ٱلحَقَائِقِ وَٱلمُتَيَقِّظُونَ مِنهُمْ ٱلمُستَعمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

امَّا تَمييزُ عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلإِنسَانُ نَفسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ. فَإِنَّهَا إِذَا ٱرتَاضَتْ بِٱلعُلُومِ ٱلحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَنِفَتْ مِنَ ٱلعَادَاتِ ٱلمُستَقبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلانسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُستَكرَهُ مِنَ ٱلعَادَاتِ وَيَغلِبُ عَلَيهِ ٱستِحسَانُ ٱلأَخلَاقِ ٱلحَمِيدَةِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِن جَمِيعِ مَا ذَكَرنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِارتِيَاضِ بِٱلأَخلَاقِ ٱلمَحمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلمَحمُودِ ٱلمَرضِيِّ مِنهَا وَتَركَ ٱلمَذمُومِ ٱلمُستَقبَحِ وَتَذلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهوَةِ ٱلغَضَبِيَّةِ وَضَبطَهَا وَقَهرَهَا هُوَ إِصلَاحُ ٱلقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقوِيَتُهَا وَتَحلِيَتُهَا بِٱلفَضَائِلِ وَٱلآدَابِ وَٱلمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَركَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَن يَتَمَكَّنُ مِن ٱكتِسَابِ ٱلعُلُومِ ٱلعَقلِيَّةِ وَٱلإِمعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيهِ ذٰلِكَ فَليَبذُلْ جُهدَهُ فِي تَدقِيقِ ٱلفِكرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفسِ وَيُصَوِّرِ ٱلفَرقَ مَا بَينَ عَادَتِهِ ٱلقَبِيحَةِ وَٱلجَمِيلَةِ وَيَنظُرْ أَيُّهُمَا أَجدَى عَلَيهِ وَأَنفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجدَرُ عَاقِبَةً وَأَبقَى عَلَى ٱلأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتهُ نَفسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقْتِ اسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ امَا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا اِلَى الدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْانْسِرَاعِ اِلَى الْانْتِقَامِ وَالسَّبِّ وَالْفُحْشِ فَمَتَى انْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَامَّلَ امْرَهُ فَرَاى انَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ الْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيْرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ارْتَكَبَ حَالَ الْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اجْلِهَا. كَذَلِكَ الْعَادَاتُ الْمَكْرُوهَةُ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ هِيَ ايْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْانْسَانِ نَفْعًا كَالْحَسَدِ مَثَلًا وَالْحِقْدِ وَالْخُبْثِ وَامْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَاِنِ انْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مَضَرَّةٌ لَهُ لِاَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ النَّاسُ بِالشَّرِّ وَاسْتَعَدُّوا لِاَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَاحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ الْخَيْرِ.. فَاِذَا حَاسَبَ الْانْسَانُ نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ انَّ الضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ الْاخْلَاقِ اكْثَرُ مِنَ النَّفْعِ بِهَا وَانَّ الَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَاِنَّ هٰذَا الْيَسِيرَ الَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِالضَّرَرِ الْكَثِيرِ وَالْعَارِ الدَّائِمِ الْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ارَادَ سِيَاسَةَ اخْلَاقِهِ انْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ الْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بأعلى درجةٍ فإنّه إذا جعل ذلك غرضَه كان حريًا أن يتوسّط في الفضائل ويبلغ فيها رتبةً مرضيةً إن فاتته الدرجة العليا وأما إن قنع بالتوسّط يُؤمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبدًا في التمام.

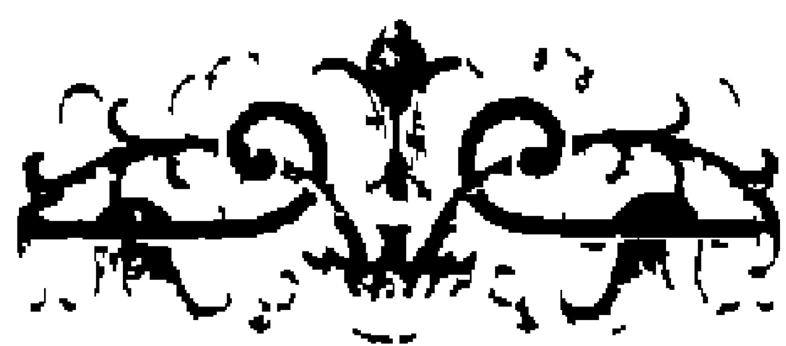
فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرّج في محمودها وكيفية تهذيبها فإذا أخذ الإنسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهّده صارت له الفضائل ديدنًا والمحاسن خلقًا وطبعًا

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التامّ الجامع لمحاسن الأخلاق... فنقول إنّ الإنسان التامّ هو الذي لم تفته فضيلةٌ من الفضائل ولم تشنه رذيلةٌ من الرذائل وهذا الحدّ قلّما ينتهي إليه إنسانٌ وإذا انتهى إليه افتراضًا كان أشبه منه بالناس. وذلك لأنّ الإنسان مضروبٌ بأنواع النقص مستولٍ على طبعه ضروب الشرّ ونماء على ذلك فقلّما يخلص من جميعها حتّى تسلم نفسه من كلّ عيبٍ ومنقصةٍ وتحيط به كلّ فضيلةٍ ومنقبةٍ حسنةٍ فالتمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول إلّا أنّه ممكنٌ وهو غايةُ ما ينتهي إليه الإنسان فإذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقّه كان ممكنًا له أن ينتهي إلى الغاية المقصودة المنتهى هو لها تلك التي تسمو نفسه إليها

أما تفصيل ذلك هو أن يكون متفقّدًا لجميع أخلاقه متيقّظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُنِّنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوَّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلْكُتَّابِ : ٱمعاشرَ ٱلْكُتَّابِ ٱحسِنُوا ٱلِٱبتِدَاءاتِ فَانَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيَانِ . وَذٰلِك ٱنْ يَجعَل ٱلخطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاوَّلَهُ دَلِيلًا عَلى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِالقائِهِ وَيَنظُر إِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمطْلُوبِ فَيَجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ اوِ ٱلدعاءَ اوِ ٱتَّضوِينَ مُشعِرًا بذٰلكَ فَإِنَّهُ مِنْ اعْلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَإِنَّما خُصَّتِ ٱلِٱبتِدَاءاتُ بِٱلِٱختِيارِ لِأَنَّهَا اوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَإِذَا كَانَ ٱلِٱبتداء مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱستِماعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ اسمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُمْ بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ ان يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ اكثَرَ ٱلِٱبتِدَاءاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِأَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّناءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهو دَاعِيَةٌ

اِلَى ٱلِاسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ أَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ أَوِ ٱلرَّسَائِلِ أَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ. إِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي. وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ أَبْوَابَ ٱلْأَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْأَذْهَانَ لِلِاسْتِمَاعِ. وَهٰذَا ٱلشِّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بَرَاعَةَ ٱلِاسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَإِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ. وَٱلْقَضِيَّةُ إِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَإِمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: إِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

اَلْحُكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ التَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى الطَّرَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَالثَّانِي مَحْمُولًا . وَقَوْلُنَا : (إِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ طَالِعَةً فَالنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَالْفَاءَ) الْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ : (الشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَالنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَالْقَضِيَّةُ الْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجَبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً . وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى التَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ الْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ : لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا . وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِامْتِنَاعِ اجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي الصِّدْقِ وَهِيَ الَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ : الْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ . وَيُسَمَّى الطَّرَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَالثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (الْقَضِيَّةُ الْبَسِيطَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِالضَّرُورَةِ .

وَأَمَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ: لَا شَيْءَ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ إِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ إِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ أُصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدَّمَةً وَقَضِيَّةً. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليات لابي البقاء)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ ٱضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ. وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ إِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِالرِّدْفِ ايضاً. وَمَوضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الحَدُّ الأَصغَرُ وَالمَحكُومُ فِيهَا هُوَ الحَدُّ الأَكبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي القَضِيَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَطَ. وَيَدعُونَ القَضِيَّةَ المُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الأَكبَرِ مُقَدَّمَةً كُبرَى وَالمُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الأَصغَرِ مُقَدَّمَةً صُغرَى. وَمَجمُوعُ المُقَدِّمَةِ الصُّغرَى بِالكُبرَى فِي القِيَاسِ يُعرَفُ بِالضَّربِ. وَنِسبَةُ الحَدِّ الأَوسَطِ إِلَى الأَصغَرِ وَالأَكبَرِ هُوَ الشَّكلُ. وَاشكَالُ القِيَاسِ ارْبَعَةٌ لِأَنَّ الأَوسَطَ إِنْ كَانَ مَحمُولاً فِي الصُّغرَى مَوضُوعاً فِي الكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الاوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرطُ إِنتَاجِ هٰذَا الشَّكلِ إِيجَابُ الصُّغرَى وَكُلِّيَّةُ الكُبرَى وَهُوَ يَختَصُّ بِأَنَّهُ يُنتِجُ المُوجَبَةَ الكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي الأَشكَالِ لَا يُنتِجُ المُوجَبَةَ الكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجَبَةً جُزئِيَّةً أَوْ سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ الحَدُّ الأَوسَطُ مَحمُولاً فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ الجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ الجَمَادِ بِإِنسَانٍ. وَكَقَوْلِ البَعضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيعُهُ لَيسَ بِمَجهُولِ الصِّفَةِ وَالنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيعُهُ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ اختِلَافُ مُقَدِّمَتَيهِ فِي الإِيجَابِ وَالسَّلبِ وَكُلِّيَّةُ كُبرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا يُنتِجُ إِلَّا سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ الأَوسَطُ مَوضُوعاً فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الثَّالِثُ) نَحوَ كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعضُ الحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغرَاهُ مُوجَبَةً

وَانْ تكُونَ إِحدَى مُقدِّمَتَيهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَواصِّهِ انَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا جُزْئِيَّةً . وَإِنْ كَانَ ٱلْحدُّ ٱلاوسَطُ عكسَ ٱلاوَّلِ بِأَنْ يَكُونَ مَوضُوعًا فِي ٱلصُّغرَى مَحْمُولًا فِي ٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلرَّابعُ) كَقَوْلِكَ : كُلُّ إِنسانٍ حَيَوانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنسانٌ فَبَعضُ ٱلحَيَوانِ نَاطِقٌ

وَٱلقِيَاسُ يُقسَمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيرِ كَامِلٍ فَٱلقِيَاسُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلزَمُ عَنهُ بَيِّنًا عِندَ وَضعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ انْ نُبَيِّنَ انَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنهُ . وَٱلغَيرُ ٱلكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلزَمُ عَنهُ شَيْءٌ وَلٰكِن لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اوَّلِ ٱلامرِ انَّ ذٰلِكَ يَلزَمُ عَنهُ . بَلْ إِذَا أُرِيدَ انْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيرُ خَارِجٍ مِن جُملَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ او عَكسُهُ تَغيِيرُ شَيْءٍ مِنهُ وَٱقتِرَاضُهُ . وَٱلقِيَاسُ إِمَّا ان يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ لَيسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ بِوَجهٍ بَلْ بِٱلقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ : كُلُّ جِسمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقتِرَانِ ٱلحُدُودِ فِيهِ . وَإِمَّا ان يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ هُوَ او نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱستِثنَائِيًّا كَقَوْلِكَ : إِنْ كَانَتِ ٱلنَّفسُ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسية والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِأَقسامِ ٱلقِيَاسِ مُلحَقَاتٌ أُخرُ يُقسَمُ إِلَيها . (أَوَّلُها) ٱلقِيَاسُ ٱلمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقدِّماتٍ يُنتِجُ مُقدِّمَتانِ مِنها نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلمُقدِّمَةِ ٱلأُخرَى نَتِيجَةٌ أُخرَى وَلَا تَزَالُ نَتَائِجُ بَعضِهَا مُقدِّماتٍ لِبَعضٍ إِلَى أَن يَحصُلَ ٱلمَطلُوبُ . فَإِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَوصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصلِ تِلكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلمُقدِّماتِ كَقَولِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنسَانٌ وَكُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسمٌ . وَإِن لَم يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَفصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطوِيَّهَا كَقَولِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنسَانٌ . وَكُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ . وَكُلُّ نَامٍ جِسمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسمٌ . (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلخُلفِ . وَهُوَ قِيَاسٌ ٱستِثنَائِيٌّ يُقصَدُ فِيهِ إِثبَاتُ ٱلمَطلُوبِ بِإِبطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ . فَيُقَالُ لَو لَم يَكُنِ ٱلمَطلُوبُ حَقًّا أَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ أَيْ بَعضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ . لٰكِنْ لَو كَانَ هٰذَا

اَلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خَلْفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيْ مِنْ وَرَائِهِ . (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ أَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتِجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِـذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يُحَرِّكُ فَكَّهُ ٱلْأَسْفَلَ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقَسَّمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ. (وَٱلثَّانِي) ٱلْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا ٱلْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ ٱلْجُمْهُورِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ. (وَٱلثَّالِثُ) ٱلْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ ٱلسَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ: ٱلصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ. وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ. (وَٱلرَّابِعُ) ٱلشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ: ٱلْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ ٱلنَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ ٱلنَّفْسَ. (وَٱلْخَامِسُ) ٱلْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِٱلصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ ٱلْأَسَدِ: هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ. وَٱلْعُمْدَةُ فِي ٱلْخَطَابَةِ عَلَى ٱلْبُرْهَانِ ٱلْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِثْبَاتُ وَٱلْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلِٱسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

ٱسْتِقْرَاءٌ وَٱلصِّنفُ ٱلثَّانِي ٱلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلْاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلْاسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ٱسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ بِٱسْتِقْرَاءٍ. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطَبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلْاسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطَبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاءُ إِذَا تُؤُمِّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ أَعْنِي إِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَإِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلْاسْتِقْرَاءِ وَٱلْقِيَاسِ. وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلْقِيَاسِ وَأَنَّ ٱلْاسْتِقْرَاءَ وَٱلْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ وَمَا ٱلْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ أَيْضًا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِيَاسِ وَٱلْاسْتِقْرَاءِ. وَٱلْاسْتِقْرَاءُ وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطَبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ أَعْنِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ. وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِأَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ. فَأَمَّا ٱلْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نُحَدِّدَ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَعْنِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ:

إِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ ٱلنَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَٱلَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: إِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ. (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَقُولَ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ. إِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ ٱلسَّكَنْجَبِينِ لِأَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ. وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هذه الصناعة لأن ذلك غير متناه وغير معلوم عند المستعمل لها ولذلك ليست تستعمل هذه الصناعة من المقدمات المحمودة أعني المقبولة ما كان مقبولا عند واحد من الناس. وتلك هي الآراء الحادثة للناس عند الشوق والهوى بل إنما تستعمل المحمود عند الأكثر او الجميع على مثل ما تستعمله صناعة الجدل. وإذا كان الأمر هكذا فالذي يفترق به القياس المستعمل في صناعة الجدل وفي صناعة البرهان من الضمير المستعمل في هذه الصناعة ان القياس يرتب الترتيب الذي يكون به القول منتجا بالضرورة. وأما الضمير فإنه تترتب مقدماته الترتيب الذي هو معتاد عند الجمهور ان يقبل. وذلك هو بخلاف الترتيب الصناعي فإن الناس يسترببون بالقول اللازم عن القول الصناعي ويرون ان ذلك إنما لزم من جهة الصناعة لا من جهة الأمر في نفسه. وأيضا فان الترتيب الصناعي يقتضي ان يصرح فيه بجميع المقدمات الضرورية في بيان ذلك المطلوب والجمهور لا يستطيعون ان يفهموا لزوم النتيجة التي تلزم عن مقدمات كثيرة. وأيضا فإنهم لا يباعدون بين النتيجة والشيء الذي تلزم عنه النتيجة أعني انهم لا يصرحون في المقاييس بالمقدمتين جميعا مع النتيجة بل إنما يأتون بمقدمة واحدة ثم يردفونها بالنتيجة. مثل انهم يقولون: هذا يدور بالليل فهو لص. ولا يقولون: كل من يدور بالليل فهو لص وهي المقدمة الكبرى. وأيضا فإن الضماير لما

كانت تصنع في الاكثر في الامور الممكنة وذلك بيّن في الامور المشاورية فانه ليس يشير احد على احد بامر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في امثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يُظن بكذبها . وايضاً فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة انما هي احد صنفين اما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البيّنة اقناعها بنفسه واما من مقدمات تتبيّن مقدماتها بمقدمات اخر تختلط بها والّا لم يتبيّن حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني ان يعسر تأليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيباً صناعياً وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يجملون المتكلم بين ايديهم ان يكون كلامه بسيطاً غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فانه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الامرين اللذين يكون فيهما الاقناع اعني في ان الشيء موجود او غير موجود وفي انه اذا وجد محمود او غير محمود . وكذلك اذا استعمل التصديق بطريق اخذ الاشباه فنستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . واذا كان هذا هكذا فاذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال انما يكونان في الاشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء باطلاق وتلك

ٱلْأَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِٱسْتِقْرَاء. فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاء وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا. وَإِذَا أُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِٱسْتِقْرَاء مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا. وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ أَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِٱعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلْإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. وَعَلَى هَذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِٱعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتِهِ وَبِهَذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِٱسْتِقْرَاء ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ . وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّهَا كُلَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ . وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ إِلَى ٱلْمُسِيءِ . وَأَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ . وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ أَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي إِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُمَا . أَمَّا ٱلَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمُتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشْبِهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدِّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ نُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الاول يخص باسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخص باسم العلامة من الثالث كما انه ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يخص باسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضمير المشتبه . فقد تبين من هذا القول ما هي المحمودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكن الذي تبين من الاقاويل القياسية على الحقيقة انما هو في كتاب القياس فانه هنالك تبين ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بينا فيما تقدم انه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانه ليس يصار فيه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بينا بالكلي الذي انتجناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في انه يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فانا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فان المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لِأَشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلِٱسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يَعُدُّهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلْأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هاهنا . وسبب عموتيه ان الضمائر تكون في جميع المقولات العشر كما تكون القياسات الجدلية لكن من الضمائر ما يكون في المواد التي في الصنائع مثل الضمائر التي تستعمل في الامور الكلية والجزئية في صناعة الطب وغيرها من الصنائع . وهذه فينبغي ان تستعمل في هذه الصنائع على نحو استعمال البراهين في تلك الصناعة لا على ما يستعملها الخطيب في المادة التي تخص الخطابة مثل ان يأتي بها جزءا من خطبة . وسائر الاشياء التي تكون بها الاقاويل الخطبية اتم فعلا وانفذ مما يذكر بعد . ومن الضمائر ما يكون في الامور التي تخص هذه الصناعة بحسب ما تبين من منفعتها وهي الامور الارادية وهذه هي التي ينبغي ان تستعمل على جهة ما يستعمل الخطباء الاقاويل الخطبية . ومن هذه الاشياء ينبغي ان تعدد في هذه الصناعة الاشياء التي هي فصول الضمائر لا من تلك المواد التي تحتوي عليها صناعة صناعة

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث السمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ أَيْضًا فِي ٱصْطِلَاحِ أَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اي تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ أَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَالِكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذَاكَ إِظْهَارَ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلأنظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلأذهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَن تَصَادُمِ ٱلآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلأفكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعرَفُ مَرَاتِبَ ٱلبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلبَحْثِ

أَمَّا ٱلجَدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنِيٌّ لِعِلْمِ ٱلخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلمَنْطِقِ وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلمُنَاظَرَةِ ٱلمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلأَحْكَامِ ٱلعِلْمِيَّةِ وَٱلعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلإِلْزَامِ عَلَى ٱلمُخَالِفِينَ.وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلجَدَالِ هُوَ عِلْمُ ٱلمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلمَذَاهِبِ ٱلفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلمُنَاظِرِينَ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ وَٱلجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ. وَأَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلغَالِبِ أَشْبَهَ بِٱلقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَراً وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وقعَ مسئلةٌ بينكَ وبينَ شخصٍ اوْ قومٍ وكانَ إرادتُكَ فيها انْ تظهرَ الحقَّ ولا تضيعَ جازَ لكَ البحثُ. لكنْ لتلكَ الإرادةِ علامتانِ إحداهُما انْ لا تفرقَ بينَ انْ ينكشفَ الحقُّ على لسانِكَ او على لسانِ غيرِكَ. وثانيهما انْ يكونَ البحثُ في الخلاءِ احبَّ اليكَ مِنْ انْ يكون في الملإ واسمعْ اني اذكرُ لكَ هنا فائدةً. اعلمْ انَّ السؤالَ عنِ المشكلاتِ عرضُ مرضِ القلبِ الى الطبيبِ والجوابُ لهُ سعيٌ لإصلاحِ مرضِهِ واعلمْ انَّ الجاهلينَ المرضى قلوبُهمْ والعلماءَ الاطباءُ . والعالِمَ الناقصَ لا يُحسِنُ المعالجةَ والعالِمَ الكاملَ لا يُعالِجُ كلَّ مرضٍ بلْ يعالجُ مَنْ يرجو فيهِ قبولَ المعالجةِ والصلاحِ وإذا كانتِ العلةُ مُزمنةً اوْ عقيمًا لا تقبلُ العلاجَ فحذاقةُ الطبيبِ فيهِ انْ يقولَ: هذا لا يقبلُ العلاجَ فلا يشتغلُ بدوائِهِ ومعالجتِهِ لانَّ فيهِ تضيعَ العمرِ

اعلمْ انَّ مرضَ الجهلِ على اربعةِ انواعٍ احدُهمْ يقبلُ المعالجةَ والباقي لا يقبلُ العلاجَ . واما المرضُ الذي يقبلُ العلاجَ

فهو ان يكون مسترشدًا عالمًا عاقلًا فهمًا لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الجاه والمال والشهوة ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان وبحث . وهذا يقبل العلاج فيجوز ان تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك اجابته . اما الذي لا يقبل العلاج احدهم من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه والحسد لا يقبل العلاج لانه من العلة المزمنة فكلما تجيبه باحسن الجواب وافصحه واوضحه لا يزيد له ذلك الا غيظا وحسدا فالطريق ان لا تشتغل بجوابه :

كل العداوة قد ترجى ازالتها ... الا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي لك ان تعرض عنه وتتركه مع مرضه قال فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا وتبع هواه فتردى والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع عمله كما جاء في الحديث : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . والثاني ان يكون علة من الحماقة وهو ايضا كالحسود لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام : (١) اني ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الاحمق وذاك رجل يشتغل لطلب العلم زمانا قليلا ويتعلم شيئا من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته لا يعلم ولا يفهم على العالم الكبير

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السعود لا في الانجيل ولا في التقاليد . ولا نعلم ممن رواه العزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلْاسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضَيِّعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا   أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ   سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضَيِّعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُذْهِبُ بَهْجَةَ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إنَّ الجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ الكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجَّلُ مُنَاجَاةَ الفِكْرَةِ وَاسْتِعْمَالَ القَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ القَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ الفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ المَخَارِجُ قَدِ اعْتَرَضَ الأَسِنَّةَ وَاسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ . وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ القَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ الكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَاحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَاجْتَهَدَ وَتَرَكَ الرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا الرَّأْيَ الفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا الجَوَابَ الدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ الكَلَامِ وَاسْتِتْمَامِهِ حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . فَتَرَاهُ يُجَاوِبُ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ المَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ المَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى الجَنْدَلُ بِالجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ الحَدِيدُ بِالحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ الجَوَابِ الحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ الخَصْمِ الأَلَدِّ الَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ امَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ . وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ اذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيَعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا . وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِاقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا . قَالَ شَارِحُ اِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ : مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشَبَّهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ . وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ .

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ : اِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ اِلَى

أمرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بينَ الشيء وأشباهِهِ • ثمَّ إنّها تنقسمُ إلى ما يتعلقُ بالألفاظِ وإلى ما يتعلقُ بالمعاني. (والأولُ) ينقسمُ إلى ما يتعلقُ بالألفاظ لا من حيثُ تركّبها وإلى ما يتعلقُ بها من حيثُ تركّبها. (والأولُ) لا يخلو إما أن يتعلقَ بالألفاظِ أنفسِها وهو أن تكونَ مختلفةَ الدلالةِ فيقعَ الاشتباهُ بين ما هو المرادُ وبين غيرِهِ • ويدخلُ فيهِ الاشتراكُ والتشابهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويسمّى جميعًا بالاشتراكِ اللفظيِّ • وإما أن يتعلقَ بأحوالِ الألفاظِ وهي إما أحوالٌ ذاتيةٌ داخلةٌ في صيغ الالفاظِ قبلَ تحصّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختارِ بسببِ التصريفِ إذا كانَ بمعنى الفاعلِ او المفعولِ. وإمّا أحوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصّلِها كالاشتباه بسببِ الاعجامِ والاعرابِ. (والمتعلقةُ بالتركيبِ) تنقسمُ إلى ما يتعلقُ الاشتباهُ فيهِ بنفسِ التركيبِ كما يقالُ: كلُّ ما يتصوّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوّرُهُ. فإنَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً إلى المعقولِ وتارةً أخرى الى العاقلِ وإلى ما يتعلقُ بوجودِهِ وعدمِهِ أي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ • وهذا الآخرُ ينقسمُ إلى ما لا يكونُ التركيبُ فيهِ موجودًا فيظنُّ معدومًا ويسمّى تفصيلَ المركبِ • وإلى عكسِهِ ويسمّى تركيبَ المفصلِ وأما (المتعلقةُ بالمعاني) فلا بدَّ أن تتعلقَ بالتأليفِ بينَ المعاني إذِ الأفرادُ لا يتصوّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو من أن تتعلقَ بتأليفٍ يقعُ بينَ القضايا او بتأليفٍ يقعُ في قضيةٍ واحدةٍ • والواقعةُ بينَ القضايا إمّا قياسيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِٱلتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ إِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ إِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اذا رُتِّبَت ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ انْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ إِذْ مَعَ إِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَإِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَأُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ بَلْ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِاعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِأَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدِّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ . وَإِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَإِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِإِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بالقضية الواحدة) فاما ان تقع فيما يتعلق بجزئي القضية جميعا وذلك يكون بوقوع احدهما مكان الآخر ويسمى ايهام العكس. ومنه الحكم على الجنس بحكم نوع منه مندرج تحته نحو: هذا لون واللون سواد فهذا سواد. ومنه الحكم على المطلق بحكم المقيد بحال او وقت نحو: هذه رقبة والرقبة مؤمنة. واما ان تقع فيما يتعلق بجزء واحد منها. وتنقسم الى ما يورد فيه بدل الجزء غيره مما يشبهه كعوارضه او معروضاته منه ويسمى اخذ ما بالعرض مكان ما بالذات كمن رأى الانسان انه يلزم له التوهم والتكليف فظن ان كل متوهم مكلف. والى ما يورد فيه الجزء نفسه ولكن لا على الوجه الذي ينبغي كما يؤخذ معه ما ليس فيه نحو: زيد الكاتب انسان. او لا يؤخذ معه ما هو من الشروط او القيود كمن يأخذ غير الموجود كاتبا غير موجود مطلقا ويسمى سوء اعتبار الحمل. فقد حصل من الجميع ثلاثة عشر نوعا ستة منها لفظية يتعلق ثلاثة منها بالبسائط هي الاشتراك في جوهر اللفظ وفي احواله الذاتية وفي احواله العرضية وثلاثة منها بالتركيب وهي التي في نفس التركيب وتفصيل المركب وتركيب المفصل. وسبعة معنوية. اربعة منها باعتبار القضايا المركبة وهي سوء التأليف والمصادرة على المطلوب ووضع ما ليس بعلة علة وجمع المسائل في مسئلة واحدة. وثلاثة باعتبار القضية الواحدة وهي ايهام العكس واخذ ما بالعرض مكان ما بالذات وسوء اعتبار الحمل. فهذه هي الاجزاء

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجَبِّنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٣٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرَكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ: أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ. فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ: أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ: نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفُّ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلعَصَاهُ (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ وَقَالَ): فَكَانَ هٰذَا أَوْجَدَهُ ٱللهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى هٰذِهِ ٱلحَالِ مِنَ ٱلكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هٰذِهِ ٱلعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلمُدَبِّرُ لِلعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَٱليَوْمِ أَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا أَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبَلَّ رِيقًا وَلَا أَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا أَنَّ ٱلجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلأَحَبِّ وَٱيْمُ ٱللهِ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلمَأْمُونُ: مَا أُعْجِبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَإِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلقَسِمِ بْنِ عِيسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلمَقْدُرَةُ إِلَى ٱلإِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلغَزَارَةُ إِلَى ٱلإِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلمَغْزَى فِي أَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا ٱلفَصْلَ وَصْلًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ: أَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ ٱلكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

الحارثُ بنُ أبي شَمِر الغَسَّاني يقولُ لكاتبهِ المُرَقِّش: إذا نَزَعَ بكَ الكلامُ إلى ابتداءِ معنًى غيرِ ما أنتَ فيهِ فَصِلْ بينَهُ وبينَ ما تَتْبَعُهُ من الألفاظِ فإنَّكَ إنْ مذقتَ ألفاظَكَ بغيرِ ما يَحسُنُ أنْ تَمذقَ بهِ نفرتِ القلوبُ عن وعيِها وملَّتهُ الأسماعُ واستثقلتْهُ الرُّواةُ. وكانَ بزرجمهر يقولُ: إذا مدحتَ رجلًا وهجوتَ آخرَ فاجعلْ بينَ القولَينِ فصلًا حتَّى تعرفَ المدحَ من الهجاءِ كما تفعلُ في كتبكَ إذا استأنفتَ القولَ وأكملتَ ما سلفَ من اللفظِ. وقالَ الحسنُ بنُ سهلٍ لكاتبهِ الحرَّاني: ما منزلةُ الكاتبِ في قولهِ وفعلهِ. قالَ: أنْ يكونَ مطبوعًا محتنكًا بالتجربةِ عالمًا بحلالِ الكتابِ والسنَّةِ وحرامِها بالدهورِ في تداولِها وتصرُّفِها وبالملوكِ في سيرِها وأيامِها مع براعةِ اللفظِ وحسنِ النسقِ وتأليفِ الأوصالِ بمشاكلةِ الاستعارةِ وبشرحِ المعنى حتَّى ينصبَ صورَها. وبمقاطعِ الكلامِ ومعرفةِ الفصلِ من الوصلِ وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ فهو كاتبٌ مجيدٌ. وقالَ المأمونُ: ما أتحفَّظُ من رجلٍ شيئًا كتحفُّظي عن الفصلِ والوصلِ في كتابهِ والتخلُّصِ من المحلولِ إلى المعقودِ وإنَّ لكلِّ شيءٍ جمالًا وحليةَ الكتابِ وجمالُهُ إيقاعُ الفصلِ موقعَهُ وشحذُ الفكرِ وإجالتُها في لطفِ التخلُّصِ من المعقودِ إلى المحلولِ. (أقول): ومعنى المعقودِ والمحلولِ ها هنا هو أنَّكَ إذا ابتدأتَ مخاطبةً ثمَّ لم تنتهِ إلى موضعِ التخلُّصِ ممَّا عقدتَ عليهِ كلامَكَ سُمِّيَ الكلامُ معقودًا. وإذا شرحتَ المستورَ وأبنتَ عن الغرضِ المنزوعِ إليهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحَاوَلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ ٱنْظُرْ سَدَّدَ ٱللهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدِرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ . وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمُحَاوَلِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصِدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ . وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ يَقُولُ : ٱلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوكَلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاوّل

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرَمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنَّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: إِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلِٱسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ومن اراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من اجله الى ان تكون اسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاثة منازل فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقا عذبا او فخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت. والمعنى ليس يتضع ان يكون من معاني العامة. وانما مدار الامر على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي وان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مداخلك وقدرتك في نفسك على ان تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام. فقال له ابراهيم بن جبلة جعلت فداك انا احوج الى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ ٱللهُ إِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمِ ٱلْقَوْلَ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي   وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْأَعْشَى: (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِأَعْذَبِ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى ٱلْأَسْمَاعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلأَلْسِنَةِ فَهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْأَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَأَقْسَامٍ مُعْتَدِلَةٍ وَأَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ يُحَاضِرَ أَهْلَ ٱلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَنِّئًا أَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

اَلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَـةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: وَأَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهَا ٱلِٱخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ: لَمْحَةٌ دَالَّةٌ. وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ: (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ). وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ. كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى: فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا أَوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ. . . . وَبِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ. وَمِنْ هٰذَا أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَمَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى أَيِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ. وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ.

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرِكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ ٱلانْسَانَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ ٱلْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ ٱلصَّوَابَ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى ٱلْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ . وَقَالَ مُطَّلِبُ ٱلْعِرَاقِيُّ لِلإِسْكَنْدَرِ : اخْلَاقُكَ تَجْعَلُ ٱلعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحكَامُكَ تَجْعَلُ ٱلصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) فَٱنْظُرِ ٱلآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلأَلفَاظِ ٱلقَلِيلَةِ يَعْنِي أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ إِلَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي ٱلدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ ٱلْعُصُورِ . وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى ٱلعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ افْصَحَ وَاحْسَنَ . وَلَمَّا شَاوَرَ ابُو مُسْلِمٍ بَعْضَ ٱلْفُرْسِ فِي امْرِهِ قَالَ لَهُ : قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ . فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلثَّلَاثِ اكْثَرَ مَعَانِي ٱلسِّيَاسَةِ . وَفِي مَا يُرْوَى انَّ بَعْضَهُمْ رَأَى شَابًّا لَا ادَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ : حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ . وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ احْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ فَقَالَ : هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ . وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ : ٱلْحَاجَةُ إِلَى ٱلْعَقْلِ اقْبَحُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمَالِ . وَقَالَ : غَيْرُ مُحِبِّ ٱلشَّرَفِ هُوَ ٱلَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْعِلْمِ . وَقَالَ سُقْرَاطُ : ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . وَرَأَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ : هٰذَا مُسْتَحِثٌّ . يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ إِلَى ٱلْمَوْتِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ : قَدْ مَاتَ اسْتَاذُكَ . فَقَالَ : ٱلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّمَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّ أَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ : ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ أَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ أَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَأَخَّرَهُ : أَنْتَ مَاشٍ وَٱلْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ أَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ أَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ أَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ : إِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْأَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ أَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَحَطُوا فَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحب بيت المال : اذا قحط المطر جادت سحاب الملك. ففرّق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشكي مثل ذلك الى قباذ بن كسرى فوقّع ليكن بنا البرّ للرعيّة والاحسان اليهم فانّي وايّاهم في نفع ذلك مشتركون . ومدح رجل من الخاصّة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه واسهب وذهب كلّ مذهب وكان المدح في رقعة . فوقّع فيها كسرى انّي للمدح مستصغر لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بان تذمّ محقوقة . ووقّع انوشروان في رقعة متنصح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع الى وزير له امر له بجائزة واثنى عليه وقال : قد جمعنا الى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقّع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته الى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقّع في رقعته . انا حامل للرعيّة على لزوم منازلهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حدّ البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة فقد سئل خلف الاحمر فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدّة معانٍ . فقال : انّ كلام العرب اوعية والمعاني امتعة فربّما جعلت ضروب من الامتعة في وعاء واحد . . . وحكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغة في المكاتبة وجودة لسان في المخاطبة انّه قال : اذا كان الايجاز كافيا كان التطويل عيّا وان كان التطويل واجبا كان التقصير عجزا . وحكى المفضّل قال : قلت

لِأَعْرَابِيٍّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ. قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

ٱلرَّابِعَةُ : رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . ٱلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . ٱلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ . ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ . عُوجُ ٱللِّسَانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ . دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ . حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ . ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

اَلْعَيْشِ يَكْدُرُ . اَلْمُرِيبُ مُخِيفٌ . اَلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ . مَنْ لَكَ بِاَخِيكَ كُلِّهِ . صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ اَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ اَفْلَاطُونَ : إِنْ كَانَ اَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ اَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ : قَلْبِي يُحِبُّ ذِكْرَكَ . وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ : فُلَانٌ اَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ . وَقَالَ آخَرُ : اَلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ : اَعْلَمُ اَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا اَخْلَفَ اَلَكَ اَخْلَفَ مِنْكَ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَاَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ : إِنِّي لَاَكْرَهُ اَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ . وَقَالَ آخَرُ : فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ آخَرُ : اَلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ . اَلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ . اَلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَاُحِبُّكَ . فَقَالَ : رَائِدُ ذَاكَ مَعِي . قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ . اَرْجُو اَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا اَحْسَنْتَ ٱلِانْتِظَارَ . وَقَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : لِسَانُ ٱلْحَالِ اَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى . وَكَتَبَ آخَرُ : اَشْكُرْ لِمَنْ اَنْعَمَ عَلَيْكَ وَاَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ . وَكَتَبَ آخَرُ : إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ اَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ يُوجَدُ أَجْنَاسُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ أَصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ إِمَّا مُنَاظِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا ٱلْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هذهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجِرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذَٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَفْقُودَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجِرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذَٰلِكَ . وَكَذَٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لَكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مدح بعضهم على طريق الحيلة في استكثار فضائل الممدوح ومذامه بالأشياء التي يتوقع حدوثها منه او يرجى حدوثها منه فيخلطون مع المدح الاشارة على الممدوح بفعل تلك الاشياء

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَامَّا ٱلغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلاَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلاَقَاوِيلِ امَّا ٱلقَولُ ٱلمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَافِعِ اوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ انفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ اوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اضَرُّ. وَامَّا ٱلقَولُ ٱلمُشَاجَرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلعَدلُ وَٱلجَوْرُ. وَامَّا ٱلقَولُ ٱلمُثبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱستَعمَلَ وَاحِدٌ مِن هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيسَ عَلَى ٱلقَصدِ ٱلاَوَّلِ بَلْ مِنْ اجلِ ٱلغَايَةِ ٱلخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ انَّ ٱلمُشِيرَ قَدْ يُقنِعُ انَّ هٰذَا عَدلٌ اوْ جَورٌ لِيُشِيرَ بِٱلاذنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلعَدلِ مِنَ ٱلمَنفَعَةِ وَبِٱلمَنعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلجَورِ لِمَا فِي ٱلجَورِ مِنَ ٱلمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُستَعمَلُ ٱلفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ اعنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلحَقُهَا مِنَ ٱلنَافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلاَقَاوِيلِ اعنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلقَصدِ ٱلاَوَّلِ فَٱلحُدُودُ ٱلمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلاَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ ٱلْجَوْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي ٱلشَّرِيعَةِ. وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَمَعَّضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ. فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ. وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلْاِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ إِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي إِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ • وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَاَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَاَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلْاِتِّفَاقِ وَاَقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْاِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ • وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْاِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ • وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ • وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مُعِينَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ • وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مَعْرِفَتُهَا وَعِلْمُهَا • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ٱلَّذِي تَسْتَعْمِلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ أَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا أَعْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةٍ بِأَسْرِهِمْ وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ أَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ): فَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِنْ أُمورِ ٱلْمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ خَمْسَةً. أَحَدُهَا ٱلإِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلْمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموَالِ لِلْمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ بِٱلحَربِ أَوِ ٱلسِّلمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلإِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلإِشَارَةُ بِمَا يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ. وَٱلخَامِسُ ٱلإِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ. فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ أَنْ يَعرِفَ ثَلَاثَةَ أُمورٍ أَحَدُهَا أَنْ يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلْمَدِينَةِ مَا هِيَ أَعنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ أَوْ مَعدِنٌ أَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ أَوِ ٱثْنَانِ مِنهَا كَيمَا إِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ أَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا. وَٱلثَّانِي أَنْ يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَعرِفَ أَصنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْمَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا إِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ أَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ أَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ أَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَأَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ أَوِ ٱلسِّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارَبُ وَمِقْدَارَ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ أَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ أَوْ فِي عِظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَأَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ ٱلْحَرْبِ. أَوْ يُعَرِّفُهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ أَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ أَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ أَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدِّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْإِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ أَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا أَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِرَةِ وَأَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْأَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَإِجَادَةِ مَا فُوِّضَ إِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. أَعْنِي أَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ أَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ إِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا أَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا أَفْضَتْ إِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا أَفْضَتْ إِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَإِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. أَعْنِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ إِلَى مَكْرُوهٍ أَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَإِنْ كَانَتْ أَفْضَتْ إِلَى ٱلظَّفَرِ أَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ أَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَإِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْفَظَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

أعني التي المنفعة بحفظها أكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه أن يشير بالحفظ وأن يكون خبيرًا بالبلاد التي يشير بحفظها . وأما الإشارة بالقوت وسائر الأشياء الضرورية التي تحتاجها المدينة فإنه يحتاج المشير فيه أن يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل أدخل الكافي من ذلك في المدينة وأحرز أم لم يدخل . وما الأشياء التي ينبغي أن تخرج من المدينة وهو الفاضل عن أهل المدينة . وما الأشياء التي ينبغي أن تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فإنه قد يحتاج المرء أن يحفظ أهل مدينته لأمرين: أحدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من أجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى أن يكون عارفًا بجميع هذه الأنواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) وأما النظر في وضع السنن والإشارة بها فليس بيسير في أمر المدن فإن المدن إنما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن أن يعرف كم أصناف السياسات وأي سنة تنفع في سياسة سياسة وأي سنة لا تنفع وأي ناس تفلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة وأي ناس لا تفلح بهم وأن يكون يعرف الأشياء التي يخاف أن يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك إما من الأضداد من خارج وإما من أهل المدينة فإن سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْأَعْدَاءِ وَٱلْأَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَإِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ إِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ. وَإِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اسْمُهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ الَّذِي يُجِيبُ فِيهِ الْآخَرُ. وَإِنَّمَا يُؤْثِرُهُ الْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا الِانْفِعَالِ الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبْعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَهٰذَا الْخَيْرُ فِي الْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ وَأَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُفَصِّلَ أَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ أَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ أَضْدَادِهَا وَعَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ النَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ الْحَالِ أَوِ الْأَنْفَعُ فِيهِ أَوِ الضَّارَّةُ فِيهِ أَوِ الْأَضَرُّ فِيهِ فَإِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ الْأَقَاوِيلُ الْمَشُورِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى الْأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَظِّمَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ إِذَا أَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ إِذَا أَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَأْذَنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ الْحَالِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ الْحَالِ أَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ الْحَالِ إِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ الشَّيْءُ أَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ الْحَالِ أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) وَأَمَّا صَلَاحُ الْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ الْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ وَحُسْنِ الْحَالِ

عند الناس مع تحصيل الاشياء الحافظة لهذه الاشياء والفاعلة لها .
وقد يشهد ان هذا هو رسم صلاح الحال المشهور ان جميع الناس
يرون ان صلاح الحال هو هذا او شيء قريب من هذا واذا كان
صلاح الحال هو هذا فاجزاؤه هي كرم الحسب وكثرة الاخوان
والاولاد واليسار وحسن الفعل والشيخوخة الصالحة وفضائل الجسد
مثل الصحة والجمال والجلد والجزالة والبطش والنجدة والجلالة
والسعادة والفضيلة واجزاؤها مثل العقل والشجاعة والعفاف والعدالة
والبر فانه هكذا احرى ان يكون الانسان موفورا مكتفيا
اعني اذا كانت له الخيرات الموجودة من خارج . والخيرات
الموجودة فيه النفسانية والجسدانية والتي من خارج هي الحسب
والاخوان والمال والكرامة وقد يظن انه يعد مع هذه نفوذ
الامر والنهي والاتفاقات الجميلة وهي المسماة عند الناس سعادة
فان بهذه الاشياء تكون حياة المرء في سيرته حياة من لا
ينقصه شيء من خارج ولا يشوب خيره شيء مضاد . واذا كان
هذا هكذا فيجب ان ننظر في كل واحد من هذه ما هو بحسب
النظر المقصود هنا وهو النظر المشهور . فاما الحسب فهو ان يكون
القوم الذين هو منهم هم اول من نزل المدينة او يكونوا قدماء
النزول فيها ويكونوا مع هذا حكاما او رؤساء ذوي ذكر جميل
وكثرة عدد وان يكونوا مع هذا احرارا لم يجز عليهم سباء او
يكونوا ممن نال الامور الجميلة المقبولة عند الناس وان لم

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ أَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَتَمَّ إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ أَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْأَحْرَارُ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ أَبَدًا أَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ . فَإِنَّهُ إِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَإِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَإِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وَلَدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِأَرْبَعٍ إِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ أَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ . وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ . وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَامِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْأَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْإِنَاثِ . وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ . وَأَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا أَنْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي أَوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً إِذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ أَلْصَقَ . وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْإِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ أَرِسْطُو إِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ . فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْأَثَاثِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ إِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ أَوْ مُنَمِّيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ أَنْ إِذَا كَانَتْ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَإِنْ كَانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جَمُوحًا . وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَأَمَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهُوَ ٱسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشْتَرَطَ فِي ٱلْغِنَى هٰذَا ٱلشَّرْطَ لِأَنَّهُ اَنْ يَكُونَ ٱلْغِنَى فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ اَحْرَى مِنْهُ اَنْ يَكُونَ فِي ٱقْتِنَائِهِ لِاَنَّ ٱلِاقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلْغِنَى وَاَمَّا ٱلِاسْتِعْمَالُ فَهُوَ ٱلْغِنَى بِعَيْنِهِ وَاَمَّا حُسْنُ ٱلْفِعْلِ عَلَى ٱلرَّأْيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلْكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْاَكْثَرُ لَا مَحَالَةَ اَوِ ٱلْاَخْيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلْكَيْسِ وَٱلْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْكَرَامَةُ فَاِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ ٱلْفِعْلِ وَاِكْرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ اَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ اَعْنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَاِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلْاِكْرَامِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَسْتَوْجِبُ ٱلْكَرَامَةَ هِيَ ٱلْعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيْسَ ٱلتَّخْلِيصُ مِنْهَا بِهَيِّنٍ اَوْ اِفَادَتُهُمُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي لَيْسَ اِفَادَتُهَا بِٱلسَّهْلِ . وَهٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ ٱلْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلْغِنَى اَوِ ٱلسُّلْطَانِ اَوْ مَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْاِنْسَانِ بِهِ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى اَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَاِلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ . فَكَانَ ٱلْكَرَامَةُ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْيَسِيرَةِ هِيَ بِٱلْعَرَضِ اَيْ مِنْ جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلْكَ ٱلْاَشْيَاءِ اَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلْاِضَافَةِ

إلى ذلك الوقت او الحال. وأما الأشياء التي تكون بها الكرامة فمنها مشتركة لجميع الأمم ومنها خاصة. فالخاصة مثل الذبائح والقرابين التي كانت قد جرت عادة اليونانيين ان يكرموا بها الأموات. ومنها عامة وهي المراتب في المجالس والمسارعة الى اقواله وترك مخالفته والهدايا التي توجب المحبة والقرب. فإن الهدية جمعت امرين بذل المال والكرامة ولذلك كانت مستحبة لجميع الناس وكل انسان يجد فيها ما يتشوقه وذلك ان الناس ثلاثة اصناف إما صنف يحب الكرامة وإما صنف يحب المال وإما صنف يجمع الامرين. والهدية قد جمعت متشوق هذه الاصناف الثلاثة

(قال) وأما فضيلة الجسد فالصحة وذلك ان يكونوا عريين من الأسقام البتة وان يستعملوا ابدانهم لان من لا يستعمل صحته فليس تغبط نفسه بالصحة اي ليس هو حسن الحال بها وهو بعيد من جميع الافعال الانسانية او من اكثرها

(قال) وأما الحسن فانه مختلف باختلاف اصناف الأسنان فحسن الغلمان وجمالهم هو ان تكون ابدانهم وخلقهم بهيئة يعسر بها قبولهم الآلام والانفعال اي لا يكونون غير محتملين للأذى وان يكونوا بحيث يستلذ ان ينظر اليهم عند الجري والغلبة

(قال) ولذلك ما يرى الناس الغلمان الذين هم مهيأون نحو الخمس

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِزَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمرًا مُكْتَسبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرْعَةِ آمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِٱلسُّرْعَةِ آمَدًا بَعِيدًا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ . وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذْقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا ٱلْخَمْسِ ٱللُّعَبِ

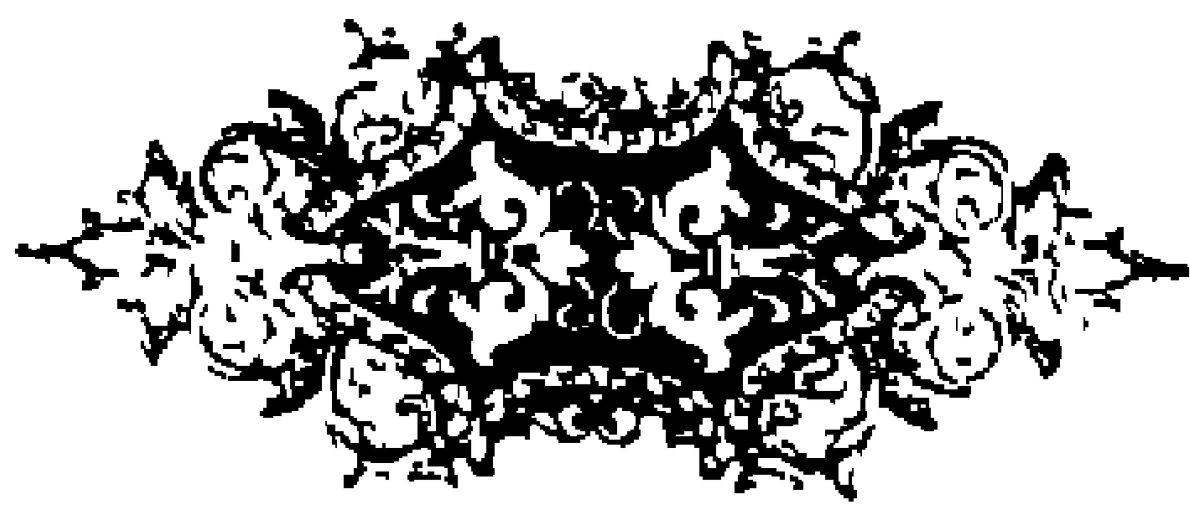
(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ . وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمْرِ مَعَ ٱلْأَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعْمارُهُمْ مَعَ اَنَّهُمْ مِسقَامُونَ . وَتَصْحيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ اَلطَّبِيعِيِّ وَلَيسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا اَلعِلْمِ مَنفَعَةٌ وَاَلْخَطِيبُ اِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِالشَّيْءِ اَلظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمَّا كَثْرَةُ اَلْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ اَلانْسَانِ بِالاخْوَانِ وَذٰلِكَ اَيضًا غَيرُ خَفِيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هُوَ اَلخَلِيلُ وَاَلصَّاحِبُ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ اَلْخَيرَ اَلَّذِي يَظُنُّ اَنَّهُ يَنفَعُ بِهِ اَلآخَرَ لَا اَلْخَيرَ اَلَّذِي يَنتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَاِذَا كَانَتِ اَلْخُلَّةُ وَاَلصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ اَنَّ اَلْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ اَلْحَالِ بِالاخْوَانِ اَلكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صَلَاحُ اَلْجَدِّ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَلاتِّفَاقُ لِلانْسَانِ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ اَلْخَيرِ لَهُ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ اَلْخَيرَاتِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَاِمَّا مِنَ اَلْخَيرَاتِ اَلْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ . وَعِلَّةُ اَلاتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ اَلصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونُ اَلطَّبِيعَةَ وَهُوَ اَلاَكْثَرُ . فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ اَلاتِّفَاقِ اَلطَّبِيعِيِّ اَنْ يُولَدَ اَلانْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ اَلاُمُورَ اَلْوَارِدَةَ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ . فَاَمَّا اَنْ يَكُونَ اَلانْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ اَلاتِّفَاقَ اَلطَّبِيعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ اَلاتِّفَاقَ اَلصِّنَاعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ . وَاَمَّا اَلْجَمَالُ وَاَلضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا اَلاتِّفَاقُ اَلصِّنَاعِيُّ وَاَلطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ اَلاَمْرِ اَنَّ اَلْخَيرَاتِ اَلَّتِي سَبَبُهَا اَلْجَدُّ اَلَّذِي هُوَ حُسْنُ اَلاتِّفَاقِ هِيَ اَلْخَيرَاتُ اَلَّتِي يَكُونُ اَلْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيهَا . وَقَدْ يَكُونُ

اَلْجَدُّ عِلَّةً لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَاِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِالْاِضَافَةِ وَالْمُقَايَسَةِ اِلَى الْغَيْرِ . كَمَا قَدْ يَكُونُ الْقُبْحُ فِي حَقِّ اِنْسَانٍ خَيْرًا مَا اِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ اَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ اَنْ يَكُونَ اِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَاَصَابَ اَحَدَهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ الثَّانِيَ فَاِنَّ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ يَرَى اَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالْاِضَافَةِ اِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ . وَبِخَاصَّةٍ اِنْ كَانَ ذٰلِكَ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ اَنْ يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ اِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ اِذَا وَجَدَ الْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ . قَدْ يَرَى اَنَّهُ خَيْرٌ بِالْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَاِنْ كَانَ الْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجَدِّ . وَاَمَّا تَعْرِيفُ الْفَضِيلَةِ فَاَوْلَى الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا . لِاَنَّ الْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِالْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْفَضِيلَةَ وَالْفَضَائِلَ وَاِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ فَالْمَادِحُ اِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَالْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهَا مُسْتَقْبِلَةٌ اَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِمَعُونَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ أَلفَاظَ أَرِسْطَاطَالِيسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ إِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَأَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ إِذًا بِٱلْإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا إِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلِاسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ . فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطَاقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلِاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَجْتَنِبُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ . وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

ٱلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ : ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِٱلْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَٱلشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ ٱلَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ ٱقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعَقْلُ . وَٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْإِرَادِيَّةِ . وَٱلَّتِي هِيَ بِٱلْقُوَّةِ مِثْلُ ٱلتَّهَيُّؤِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَٱلنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَٱلْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَٱلَّتِي هِيَ تَامَّـةٌ كَٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّـةٍ فَكَالصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا ٱحْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ ٱلْبَتَّةَ فَكَٱلْعِلَاجِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَٱلرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتِ ٱلَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَمِّيَّـةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَيْفِيَّـةِ وَفِي سَائِرِ ٱلْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَٱلْقُوَى وَٱلْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْأَحوَالِ وَمِنهَا كَالْأَفعَالِ وَمِنهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنهَا كَالْآلَاتِ . وَوُجُودُ الْخَيرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوهَرِ أَعنِي مَا لَيسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيرُ الْأَوَّلُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحوَهُ بِالشَّوقِ إِلَيهِ وَلِأَنَّ مَآلَ الْخَيرَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنهُ . وَأَمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعتَدِلُ وَالْمِقدَارُ الْمُعتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ . وَأَمَّا فِي الْإِضَافَةِ فَكَالصَّدَاقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ . وَأَمَّا فِي الْأَينِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْأَنِيقِ الْبَهِجِ . وَأَمَّا فِي الْوَضعِ فَكَالْقُعُودِ وَالِاضطِجَاعِ وَالِاتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ . وَأَمَّا فِي الْمِلكِ فَكَالْأَموَالِ وَالْمَنَافِعِ . وَأَمَّا فِي الْاِنفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ . وَأَمَّا فِي الْفِعلِ فَمِثلُ نَفَاذِ الْأَمرِ وَرَوَاجِ الْفِعلِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخرَى) الْخَيرَاتُ مِنهَا مَعقُولَاتٌ وَمِنهَا مَحسُوسَاتٌ

(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَد قُلنَا إِنَّهَا خَيرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَغنَا إِلَيهِ لَم نَحتَج مَعَهُ إِلَى شَيءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفضَلُ الْخَيرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ . (وَأَرِسطَاطَالِيسُ) يَقُولُ إِنَّهُ يَعسُرُ عَلَى الْإِنسَانِ أَن يَفعَلَ الْأَفعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثلِ اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثرَةِ الْأَصدِقَاءِ وَجُودَةِ الْبَختِ

(وَأَمَّا أَقسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمسَةٌ

أقسام : (أحدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج أعني أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والأعوان وأشباههما حتى يتسع لأن يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويؤاسي منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) أن تحسن أحدوثته في الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف . (والرابع) أن يكون منجحا في الأمور وذلك إذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير إلى ما يأمله منه . (والخامس) أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك .

(وأما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وأفلاطون وأشباههم فإنهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) . وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ. وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ ٱضْطُرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ. وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يُحَقِّرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهَذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذَلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذَلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ . وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ . وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا . وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اَعلَى وَإِنْ كَانَ مَعقُولا فِي اَلْمَكَانِ اَلْاَسْفَلِ. وَيَنْبَغِي اَنْ يُعلَمَ اَنَّهُ لَيسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ اَلْاَرْوَاحِ اَلطَّيِّبَةِ اَلْمُسْتَغْنِيَةِ عَنِ اَلْاَبدَانِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اَلسَّعَادَاتِ اَلْبَدَنِيَّةِ اَلَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ اَلنَّفْسِ فَقَطْ اَعْنِي اَلْمَعْقُولَاتِ اَلْاَبدِيَّةَ اَلَّتِي هِيَ اَلْحِكْمَةُ فَقَطْ. فَإِذَا مَا دَامَ اَلْاِنسَانُ اِنْسَانًا فَلَيسَ تَتِمُّ لَهُ اَلسَّعَادَةُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ اَلْحَالَيْنِ جَمِيعًا وَلَيسَ يَحْصُلَانِ عَلَى اَلتَّمَامِ إِلَّا بِالْاَشْيَاءِ اَلنَافِعَةِ فِي اَلْوُصُولِ إِلَى اَلْحِكْمَةِ اَلْاَبَدِيَّةِ. فَالسَّعِيدُ اذا مِنَ اَلنَّاسِ يَكُونُ فِي اِحْدَى مَرْتَبَتَيْنِ إِمَّا فِي مَرْتَبَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلْجِسْمَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاحْوَالِهَا اَلسُّفْلَى سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ اَلْاُمُورَ اَلشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا اِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا. وَإِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاحْوَالِهَا اَلْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ اَلْاُمُورَ اَلْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَاظِرًا فِي عَلَامَاتِ اَلْقُدْرَةِ اَلْاِلهِيَّةِ وَدَلَائِلِ اَلْحِكْمَةِ اَلْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاظِمًا لَهَا مُفِيضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا سَائِقًا لَهَا نَحْوَ اَلْاَفْضَلِ فَالْاَفْضَلِ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ اَسْتِطَاعَتِهَا. وَاَيُّ اَمْرِىءٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي اِحْدَى هَاتَيْنِ اَلْمَنْزِلَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ اَلْاَنْعَامِ بَلْ هُوَ اَضَلُّ وَإِنَّمَا صَارَ اَضَلَّ لِاَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِهَذِهِ اَلْخَيْرَاتِ وَلَا اُعطِيَتِ اَسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوَ هَذِهِ اَلْمَرَاتِبِ اَلْعَالِيَةِ وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَاهَا نَحْوَ كَمَالَاتِهَا اَلْخَاصَّةِ بِهَا وَالْاِنسَانُ مُعَرَّضٌ لَهَا مَنْدُوبٌ اِلَيْهَا مُزَاحُ اَلْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مُحَصِّلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤْثِرٌ اِضْدَادَهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَاهُ اَلشَّرِيفَةَ فِي

ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيئَةِ وَتِلْكَ مُخْتَصَّةٌ بِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذًا ٱلْأَنْعَامُ إِذَا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوَارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُوزُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلسَّعِيدِ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خِدَاعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَتَحَصَّلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهَشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَأَحَبَّ ٱلْإِقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ إِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَأَقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْأَحْبَابِ مِنْ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ إِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْإِنْحِلَالَ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَى صُحْبَةِ أَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا أَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا قَرَّبَ إِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . إِلَّا أَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا أَعْنِي أَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ إِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَإِذْ قَدْ لَخَّصْنَا أَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا أَنَّ إِحْدَاهُمَا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَيْنَا أُولَى وَٱلْأُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ أَنْ نَسْلُكَ إِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَمُرَّ بِٱلْأُولَى . . ثُمَّ أَعْلَمْ أَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ أَوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ هٰذَا ٱلِاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ أَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ. وَكَذٰلِكَ أَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ أَقْتِنَاءُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَأَخِّرًا وَمِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ تَكُونَ أَصْنَافُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طارح امتعتهم شر لكن تستفاد منه السلامة من شر هو اعظم وهو العطب. والخيرات التي تستفاد من الخيرات يسميها ارسطو فوائد باطلاق واما تلك فيسميها انتقالا ويعني بذلك انها انتقال من شر الى ما هو اخف شرا منه او انتقال من شر الى ما هو خير

(قال) والفضائل وان كانت غايات فهي ايضا خيرات في انفسها ونافعة في الخير فان المقتنين لها هم بها حسنو الاحوال وهي مع هذا فاعلة للخير ومستعملة فيه

(قال) وقد ينبغي ان نخبر عن كل واحد من هذه وكيف هي خير في نفسها وكيف هي فاعلة للخير ونفصل الامر في ذلك. واللذات ايضا هي خير بنفسها لان جميع الحيوان يشتاق اليها. والامور اللذيذة انما تكون خيرا اذا كان بها الملتذ حسن الحال وقد يستبين من التصفح انها خير وانها قد تكون نافعة في الخير واجزاء صلاح الحال. وبالجملة منها ما هي غايات فقط. ومنها ما قد تعد غايات وهي نافعة ايضا في الغايات. وذلك ان لبعضها ترتيبا عند بعض اعني ان بعضها علة لوجود بعض ومتقدم عليه. ومثال ذلك ان الشجاعة والحكمة والعفاف وكبر النفس والنبل وما اشبهها من فضائل النفس قد تختار اشياء كثيرة من اجزاء صلاح الحال من اجلها. وكذلك الصحة والجمال من فضائل الجسد قد تختار اشياء من اجلها هي من صلاح الحال وهي فاعلاتها وكذلك تختار

فَاعِلَاتٌ أَشْيَاءَ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ ٱللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلْحَسَنَةِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱللَّذَّةُ وَٱلْآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِكَثْرَةِ ٱلْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّدَاقَةُ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا من أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ ٱلْإِخْوَانَ ٱلَّذِينَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ ٱلْكَرَامَةَ وَٱلتَّحْمِيدَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ فَإِنَّ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تُفْعَلُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ وَٱلتَّحْمِيدُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلنَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا ٱلْمَلَكَاتُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلْحَرَكَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْكَمَالَاتُ مِثْلُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَكَذٰلِكَ ٱلسِّيَرُ ٱلْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَٱلْبُرْءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ وَٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَضْدَادِ هٰذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

الصناعة على طريق المراء اعني ببيان سوفسطائي. وذلك ان الشر انما ينفع بالعرض مثل ان يبين خطيب لاهل مدينة ما ان الجبن لهم خير لانهم ان شجعوا خرجوا عن المدينة فنال منهم العدو ولكن الجبن ليس هو خيرا على الاطلاق وانما كان خيرا بالاضافة الى اهل المدينة الذين عرض لهم هذا. واما النافع في الاكثر وبالذات للانسان فهو الخير كما ان الشر المضاد للخير هو نافع للاعداء وذلك ان الجبن لما كان شرا لاهل المدينة بالعرض كان نافعا للاعداء. والشجاعة لما كانت بالذات خيرا لهم كانت ضارة بالاعداء الا انه قد يلحق ما هو شر ما للانسان ان يكون ضارا لعدوه وما هو خير ما له ان يكون نافعا لعدوه مثل الجبن لاهل المدينة الذين اذا خرجوا عن المدينة لم تكن لهم قوة يقاومون بها عدوهم. فينبغي للخطيب ان يتحرى في كل وقت النافع من هذه الاشياء وهذه القضية ايضا ليست كلية اعني القائلة ان كل ما يضر العدو ويكرهه نافع وكل ما ينفع العدو ويسره ضار فان كثيرا ما يكون الامر الواحد ضارا للانسان وعدوه ونافعا للانسان وعدوه. فمثال ما هو نافع لكليهما ويسر به كل واحد منهما مفارقة العدو عدوه اذا كانت بعد مقاتلة شديدة بينهما ومقاومة اشفى كل واحد منهما على العطب منها من غير ان يظفر احدهما بصاحبه فانهما اذا افترقا في اثر هذه الحال سر كل واحد منهما بالافتراق ولذلك قد يكون النافع

نَافِعًا لِلأَعْدَاءِ أَيْضًا. وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكِلَيْهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلْعَدُوِّ. وَذٰلِكَ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي نُزُولِ ٱلشَّرِّ ٱلْوَارِدِ بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضُلَ أَحَدُهُمَا فِي ذٰلِكَ صَاحِبَهُ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ كَانَ ٱتِّفَاقُهُمْ بِهٰذَا ٱلسَّبَبِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ إِنَّ ٱلشَّرَّ قَدْ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ فَهٰذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ ٱلشَّرُّ نَافِعًا أَعْنِي أَنْ يَكُونَ ٱلضَّرُّ ٱلنَّازِلُ بِٱلْإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلْعَدُوِّ وَحِينَئِذٍ يَهْوَى ٱلْعَدُوُّ ٱلْوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ ٱللَّذَيْنِ وَرَدَ عَلَيْهِمَا ٱلْعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوَى صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِيَكُونَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى ٱلْعَدُوِّ ٱلْوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ. وَٱلْعَدُوُّ ٱلْوَارِدُ يَهْوَى بَقَاءَ عَدَاوَتِهِمَا عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأَكُّدَهَا. وَأَرِسْطُو يَقُولُ: وَلِذٰلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ ٱلنَّفَقَاتُ ٱلْعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ ٱلْأَفْعَالُ ٱلْكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي يُدْفَعُ بِهِ ٱلشَّرُّ ٱلْعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ ٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ لِظُهُورِ مَا يَلْزَمُ عَنْهَا مِنَ ٱلْغَايَةِ ٱلْمَطْلُوبَةِ وَقُرْبِهَا حَتَّى كَأَنَّهَا إِذَا وُجِدَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وُجِدَتِ ٱلْغَايَةُ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلشَّرُّ ٱلْمُفْرِطُ ٱلنَّازِلُ بِٱلْعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلِٱعْتِرَافِ بِٱلْخَيْرِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَاهُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ ٱلْعَدُوُّ. مِثْلَ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ لِلْيُونَانِيِّينَ أَنَّهُ ٱشْتَدَّتْ مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَصْرُهُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذٰلِكَ ٱلْحِصَارِ ٱبْنَهُ فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ جُثَّتَهُ لِيُحْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوْتَاهُمْ فَفَعَلُوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ أُومِيرُوشُ الشَّاعِرُ (قَالَ) وَمِنَ الِاصْطِنَاعَاتِ النَّافِعَةِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ الْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُصْطَنِعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ النَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ الْإِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِأَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِأُومِيرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَأَصْدِقَاءَهُ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا إِلٰهِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَفِعْلُ الشَّرِّ بِالْأَعْدَاءِ وَالْخَيْرِ بِالْأَصْدِقَاءِ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ.

وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يُظَنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذٰلِكَ فَإِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجلِ خَوفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنْقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنْقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ ٱلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا. وَأَمَّا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضَلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِأَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِٱلْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذٰلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَحَبِّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذٰلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمُ مَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّانِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِٱصْطِنَاعَ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) فمِنْ هٰذهِ ٱلوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلخطيبُ ٱلمُقَدَّماتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ ٱلخطيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ أَحْيَانًا بِأَنَّ ٱلأَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَاهُنَا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ ٱلأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِنْهَا أَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلأَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلأَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلأَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلخَيْرِ أَكْثَرَ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلغَايَةِ وَهُوَ ٱلغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلخَيْرِ. وَٱلأَشْيَاءُ ٱلمُتَّصِفَةُ بِٱلخَيْرِ ٱلمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلخَيْرِ ٱلَّذِي

جمع هذه الصفات إنما يقال فيها أنها أنفع إذا وجد في واحد منها صفة واحدة من هذه الصفات أو أكثر من صفة واحدة. وكل ما كان من هذه الأشياء توجد فيه صفات أكثر من صفات الخير فهو أنفع ما لم تكن الصفة الواحدة أنفع من اثنتين أو من ثلاث. وأيضا فما كان العظيم فيه أفضل من العظيم في جنس آخر فالجنس الذي فيه العظيم الأفضل هو أفضل من الجنس الآخر وما كان الجنس منه أفضل من الجنس الأفضل فالعظيم من الجنس الأفضل أفضل من العظيم من الجنس الآخر وهو عكس الأول. ومثال ذلك أنه إن كان الذكران أفضل من الإناث فالرجل أفضل من المرأة وإن كان الرجل أفضل من المرأة فالذكران أفضل من الإناث. وإنما كان ذلك كذلك لأن نسبة العظيم إلى جنسه هي كنسبة العظيم الآخر إلى جنسه فتكون نسبة الجنس إلى الجنس هي نسبة العظيم إلى العظيم. ثم إذا كان الشيء لازما لشيء ما والآخر غير لازم له فإن الذي يلزم عنه الشيء آثر من الذي لا يلزم عنه الشيء. مثال ذلك السلطان والثروة فإن الثروة تلزم السلطان وليس يلزم السلطان الثروة. فلذلك السلطان أفضل من الثروة وكذلك الحال في المضار فإن الفقر يلزم عنه البخل وليس يلزم عن البخل الفقر. فالفقر أكثر شرا من البخل واللازم يوجد على ثلاثة أقسام: إما أن يوجدا معا أعني اللازم والملزوم مثل وجود الأبيض والبياض

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ . وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللاَّزِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلاَزُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلآخَرُ فِعْلَ ٱلأَوَّلِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ أَخْيَرَ ٱلأَنْفَعِ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا . وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ . وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ . مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ . وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارُ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى ٱلإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ حَاجَةً . فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا . وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ . وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ . وَعَكْسُ هٰذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ . وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَأَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا . فَمِثَالُ مَا تُجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ : إِنَّ

فُلاَنًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ إِلَى ٱلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ ٱلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ ٱلْفَاعِلُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْغَايَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ اَحَقُّ بِٱلشُّكْرِ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِأَنَّ فُلَانًا هُوَ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَلَوْلَا إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا ٱلْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ ٱلْغَايَةِ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ ٱلْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ ٱلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ إِنَ ٱلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَإِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِأَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ إِلَيْهِ. وَاَيْضًا ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا ٱلَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ ٱلْأَعْظَمِ وَٱلْأَقَلِّ عِظَمُ ٱلْمُقَايَسَةِ فِي ٱلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَإِنَّ ٱلْغَايَاتِ وَٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ ٱلْأَفْعَالُ إِذَا كَانَتِ ٱلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْأَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضاً فإنّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فإنّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لانّ نسبة الافعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانّه ان كان البصر آثر من الشمّ فانّ الابصار آثر من الشمّ وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتية فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فانّ العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض انه عظيماً وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني انّ الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضاً ان يحبّ الانسان صاحب المال افضل من ان يحبّ المال لانّ حبّ الانسان افضل من حبّ المال. وايضاً فانّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك انّ شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضاً عكس هذا وهو انّ ما هو افضل فشهوته افضل مثل انّ الحكمة افضل من الصحة فشهوتها افضل من شهوة الصحة. وايضاً فانّ العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو انّ التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك انّ الوقوف على الحق لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنَائِعُ ٱلعِلْمِيَّةُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّـةِ وَإِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلمَوْضِعَانِ مُتَلَازِمَيْنِ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا إِلَى فِعْلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ أَوِ ٱلأَكْثَرُ أَوْ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ وَٱلأَخْيَارُ ٱلصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ فَهُوَ أَفْضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلأَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱسْتَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ ذَوِي ٱلأَلْبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيْرِ مِنْ أَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيْرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ أَعْنِي ٱللَّبِيبَةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ أَوْ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلأَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِٱلإِضَافَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يُرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَجُورَ هُوَ فَإِنَّ هٰذَا ٱلخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدْلِ وَٱلفَضْلِ. وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيْرَاتِ مَعَهُ أَكْثَرَ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ يَبْتَدِرُونَ إِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ أَجْلِ ٱللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اعني مُنْتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ إِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْأَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ ابرأُ مِنَ ٱلْأَذَى وَٱلْحُزْنِ وَادوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ أَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِأَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ إِمَّا لِنَفْسِهِ وَإِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ أَفْضَلَ فَهُوَ أَلَذُّ مِمَّا هُوَ اخسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا أَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ أَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا أَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ أَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ أَلَذُّ مِمَّا هُوَ أَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ أَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا أَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ لَذَّةً إِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِالْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْأَشْيَاءُ إِذَنْ إِنَّمَا تَصِيرُ أَكْثَرَ لَذَّةً إِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةً أَكْثَرَ فَإِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْأَنْفَعِ وَٱلْأَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

اَلْجُمْهُورِ وَمَا اَخْتَارَهُ اَيضًا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ . وَمَا اَخْتَارَهُ اَيضًا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأَوَلُ اَعْنِي ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ اَفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا اَخْتَارَهُ اَيضًا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ اَفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ . وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ اُصُولُ ٱلْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اَيْ قَادِرٌ عَلَى اَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ اَحْكَامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأَوَلُ . وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا اَشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ اَصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ اَنْ يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ اَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْأَوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ اَنْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأَوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِئِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ اَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَرِسْطُو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى . وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْأَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ اَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ اَوِ ٱلْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ اَفْضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْأَخْذِ قَدْ يُخَيِّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وَقِلَّةَ قَبُولِ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ . وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ . فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ . وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلـكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ أَيْضًا أَفْضَـلُ وَأَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَـيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْأَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْـكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْإِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّـا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْأَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْأَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَـلُ كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْـكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا أَوْ فِي ٱلْأَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْـلُ وُجُودِ ٱلْإِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا أَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . وَمِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَـلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَـكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِـلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْـلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلِٱنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَأَيضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَالْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ . وَأَيضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَالنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغْدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلْإِنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِٱمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَحْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَٱلْـكَلَامُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا ٱلْـكَلَامُ فِيهَا بِٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِٱلنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰـذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِٱلْمِثَالَاتِ ٱلْمَأْخُوذَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فَعَـلُوا تِلْكَ ٱلْأَفَاعِيـلَ فَلَحِقَهُمُ ٱلنَّفْعُ أَوِ ٱلضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَـكُونَ حَافِظًا لِلْقَصَصِ وَٱلْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يُثْبِتُ بِهَا أَنَّ ٱلشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةِ بِٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعُ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِشَارَةَ بِٱلسُّنَنِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْإِقْنَاعَ ٱلتَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلَّتِي بِهَا

يكون خلاص تلك المدينة وقوامها. والسنن النفيسة الخطيرة هي السنن العادلة اعني الموضوعة في العدل التي رسمها الرئيس الاول في تلك المدينة او المسلط عليها من قبل الرئيس الاول. وهذه السنن النفيسة اعني السنن العادلة تختلف في السياسات بحسب اختلاف غاياتها. وعددها على عدد السياسات. مثال ذلك ان العدل في سياسة التغلب انه لا شيء على الرئيس اذا لطم المرؤوس. وفي سياسة الحرية العدل في ذلك ان يلطم الرئيس مثل اللطمة التي لطمها. والسياسات بالجملة اربع السياسة الجماعية وسياسة الخسة وسياسة جودة التسلط وسياسة الوحدانية وهي الكرامية. وهذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة فيها انما هو المدينة والكل لا الشخص. واما المدينة الجماعية فهي التي تكون الرئاسة فيها بالاتفاق والبخت لا عن استئهال اذ كان ليس في هذه المدينة لاحد على احد فضل. واما خسة الرئاسة فهي التي يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين باداء الاتاوة والتغريم لا على جهة ان تكون نفقة للحماة والحفظة ولا عدة للمدينة على ما عليه الامر في السياسات الاخر بل على جهة ان تحصل الثروة للرئيس الاول. فان جعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة الثروة. وان لم يجعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة التغلب وكانوا بمنزلة العبيد للرئيس الاول. وكانت محاماته عنهم بمنزلة محاماة الانسان عن عبيده. واما جودة التسلط فهو التسلط الذي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِاسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدَّهْرِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلأَزْمِنَةِ وَٱلأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَالْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلإِقْنَاعَ فِيهَا. وَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ إِنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيـلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيـلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُـذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّـهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَـيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيـلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلأُمورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلاخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجلِ أَنَّهُ يَعرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحَانِيُّونَ بِالفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيرِ ٱلفَضِيلَةِ وَلَيسَ يَعرِضُ هٰذَا فِي مَدحِ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدحِ ٱلأَشيَاءِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ وَغَيرِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ. أَعنِي أَنَّهَا تُمدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنبَغِي أَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنهَا ٱلمُقَدَّمَاتُ فِي ٱلمَدحِ بِٱلفَضَائِلِ وَبِغَيرِ ٱلفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلقَولُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُختَارُ مِنْ أَجلِ نَفسِهِ وَهُوَ مَمدُوحٌ وَخَيرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهَا خَيرٌ وَهِيَ مَمدُوحَةٌ. وَٱلفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعلٍ هُوَ خَيرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيرٌ أَعنِي ٱلحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقدِيرِ وَٱلفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعلٍ يُقصَدُ بِهِ نَحوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلقَدرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلكَ ٱلغَايَةِ عَنهُ. فَأَمَّا أَجزَاءُ ٱلفَضِيلَةِ فَٱلبِرُّ أَيِ ٱلعَدلُ ٱلعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلمُرُوءَةُ وَٱلعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلهِمَّةِ وَٱلحِلمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلحِكمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلفَضَائِلُ مِنهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعظَمَ عِندَ قَومٍ مِنهَا عِندَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقتِ ٱلحَربِ مِنهَا فِي وَقتِ ٱلسِّلمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلعَدلِ فَمُؤْثَرَةٌ فِي ٱلسِّلمِ وَٱلحَربِ

جَمِيعًا . وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلْمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمَحَاوِيجِ . وَإِنَّمَا تَنْفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوءَةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ ٱلسَّخَاءِ . فَأَمَّا ٱلْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي ٱلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلْأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ خَادِمًا لِلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلْجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ فِي شَهَوَاتِ ٱلْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلْجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ . وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا كِبَرُ ٱلْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْعَظِيمَةِ وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ . وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا . وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ . فَهٰذَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلْفَضِيلَةَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلْفَضَائِلِ مِثْلُ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا أَعْنِي ٱلْأَغْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

الفضائل فهي التي يقال فيها الآن وهي علامات الفضائل وأعراضها اللاحقة لها. وأفعالها إنما يمدح بها إذا كانت حسنة محمودة فإن كثيرًا من أفعال الفضائل قد لا يمدح بها وكذلك كثير من الأعراض. فمثال الأفعال والأعراض التي هي محمودة أفعال الشجعان في الحرب أو من فعل في الحرب فعلهم وإن لم تكن لهم ملكة الشجاعة. وكذلك الأعراض التي تلحق الشجعان مما يمدح بها. ومثال الأفعال التي لا يمدح بها في وقت ما بذل المال فإنه فعل من أفعال السخاء لكن ربما كان ذلك الفعل على جهة التبذير. ومثال الأعراض التي لا يمدح بها انفعال المرء عن العدل وقبوله إياه وذلك أن فعل العدل ممدوح وأما الانفعال عنه فليس بممدوح لأنه يظن به أنه مهانة وضيم. وبالجملة فأفعال الفضائل إنما تكون ممدوحة إذا كانت مقدرة تقدير العدل ومما يمدح بها الأفعال العظيمة الشاقة التي جزاؤها الكرامة فقط. فإن الأفعال التي يكون جزاؤها الكرامة خير من الأفعال التي جزاؤها المال. ولذلك إذا كان فعل يجازى عليه بالأمرين جميعًا ففعله فاعل من أجل الكرامة فقط مدح به وكل ما يفعله المرء من الفضائل لا من أجل نفسه مدح به. وفعل الأشياء التي هي خيرات بإطلاق كذلك مما يمدح به. والأشياء التي في طبيعتها خيرات وإن كانت ضارة للفاعل يمدح بها أيضًا. مثل فعل العدل فإن العادل كثيرًا ما يستضر به.

وَٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ ٱلْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا ٱلْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْغَيْرَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلْمُحْسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ. وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمَحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْخَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِي عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِٱمْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِٱلْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يَمْنَعُنِي عَنْهُ ٱلْحَيَاءُ، فَخَلَّتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كَأَيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا ٱلتَّعْرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ جَعَلَتْ تَمُصُّ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

أيضًا لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم أن مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للأشياء التي تكتسب المجد والمحاماة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك إذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك أن أمثال هذه الأفعال قد يصير بها الإنسان من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة

(قال) والإنعام على الغير إذا لم يستفد المنعم منه شيئا هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الإنسان من جهة أنهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام أيضا من الأعداء والا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فإن الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة أيضا ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لأنهما علامتان تدلان على إيثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. أما محبة الغلبة فتدل على إيثار الشجاعة. وأما محبة الكرامة فعلى إيثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الأثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها إلى اكتساب مال. لأن ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ إِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِأَنَّ ٱلْمَوْفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يَمْتَهِنُونَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوهِمَ أَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وُجِدَ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمدَحُ مِنَ ٱلأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى ٱلأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمدَحُ بِٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ ٱلإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمدَحُ ٱلْخَجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على أنها حدثت عن الروية. والأشياء التي بالاتفاق منها أشياء ليس الإنسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها أشياء تعرض عن الأفعال التي تكون عن الروية. فأما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الأفعال فتؤخذ علامة على الفضائل. وأما الاتفاقات المتقدمة على الإنسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح: إن الخيار يولد في الخيار. وفي الذم: إن الحية تلد الحية. والأفعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل. وأما آثار الأفعال فهي دلائل على الفعل وإنما يمدح بها إذا أثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم إنها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الأشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما أن صلاح الحال جنس للفضيلة أعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة. وهذان الجنسان أعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين. وإنما كان الأمر كذلك لأنا إذا عرفنا الأشياء التي يجب أن تفعل فقد عرفنا الأشياء التي إذا فعلت مدح بها الإنسان. ولذلك إذا ذكرت هذه الأشياء ذكرا مطلقا أمكن أن تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة أو الجهة التي بها تدخل في المدح. وذلك مثل ما يقول القائل

إنه ليس ينبغي أن يوجب العظم والفضل للأشياء التي تكون للإنسان بالعرض بل للأشياء التي تكون عن رويته واختياره. فاذا زيد الى هذا. فلذلك ليس ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم بالبخت وإنما ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم عن روية واختيار كفلان كان داخلاً في باب المدح. وإذا زيد الى هذا فلذلك لا ينبغي أن تطلب الأشياء التي تكون عن الاتفاق بل الأشياء التي تكون عن الروية دخل في المشورة. والأشياء الاتفاقية قد يمكن أن تستعمل في المديح تارة وفي الذم أخرى. فإن ظنون الناس فيها مختلفة فإن قوماً يرون أن الخيرات التي تكون بالاتفاق ليس ينبغي أن يمدح بها إذ كانت شيئاً غير محصل ولا مكتسب للإنسان. وقوم يرون أنه يجب أن يمدح بها وأنها تدل على عناية إلهية بالذي تعرض له وأما الأشياء التي عن الاختيار فالممدوح منها يمدح به أبداً والمذموم منها يذم به أبداً

(قال) وينبغي أن يستعمل في المدح الأشياء التي يكون بها تعظيم الشيء وتسمينه وهو أن يخيل في الشيء أنه بالقوة أشياء كثيرة. وذلك إذا قيل إنه أول من فعل هذا كما قيل في قصة هابيل وقابيل. أو إنه وحده فعل هذا. أو إنه فعل في زمان يسير ما شأنه أن يفعل في زمان كثير. أو إنه فعل فعلاً كبيراً. فإن هذه كلها إنما تفيد عظم الفعل. وكذلك إذا قيل انه فعل في زمان يعسر فعله. وذلك إذا كان بحسب ما يشاكل إنساناً

إنسانًا . ثمّ إنّه إن كان الفاعل ممّن يُقتدى به في أفعاله وأقواله مرارًا كثيرة فإنّ فعله عظيم كما قيل : إنّكم أيّها الرّهط أئمّة يُقتدى بكم . والأفعال الّتي يُقتدى بها ليست هي الأفعال الّتي تكون بالاتّفاق بل الأفعال الّتي تكون عن المشيئة والرّويّة . وهذه الأشياء قد يُمكن أن تدخل في المشورة أعني الأشياء الّتي تعظّم الشيء مثل أن يشار على المرء أن يتشبّه بالممدوح الأوّل في ذلك الجنس أو يتشبّه به في المدح أو يشار عليه أن يكون من جملة الممدوحين الّذين لا يُنازع أحد في حمدهم . ومثل الّذين يمدحون في الأسواق أو يتشبّه بهم في المدح . وممّا يعظّم الممدوحين أن يقاسوا بالّذين يفعلون أضداد أفعالهم وذلك عند ذكر أفعالهم الفاضلة

(قال) والّذين شأنهم أن يتشبّهوا بالممدوحين الّذين في الغاية ويقايسوا أنفسهم معهم دائمًا فقد ينبغي أن يشبّهوا بأولائك وأن يجروا مجراهم في المدح وإن لم يكونوا وصلوا مراتبهم . فإنّ فضائلهم في نموّ دائم . ومقايسة الإنسان نفسه مع غيره لا تصحّ إلا من الرّجل الفاضل لموضع حبّ الإنسان لنفسه فهو يرى نقائصه أقلّ من نقائص غيره وإن كانت أعظم . ويرى فضائله أكثر وإن كانت أصغر ولذلك ليس كلّ أحد يستطيع المقايسة وإنّما يستطيعها الفضلاء من النّاس ومثل ما حكى أرسطو عن سقراط أنّه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الأحكام

عَلَى أخلاقِ نَفسِهِ. يَعني أنَّهُ كانَ يَنظُرُ بينَهُ وبَينَ غيرِهِ فَإنْ وَجَدَ فيهِ فَضيلَةً أثابَ نفسَهُ عليها وإنْ وجَدَ فيهِ رَذيلَةً عاقبَ نفسَهُ عليها.
وَٱلمقايسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُريدُ أنْ يتزيَّدَ في ٱلفَضائِلِ إنَّما يَنبغي أنْ يَكونَ بِٱلممدوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أنَّ أمثالَ هؤلاءِ مَمدوحونَ أعني ٱلَّذينَ فَضائِلُهُمْ في نُموٍّ دائِمٍ أنَّ ٱلَّذينَ أجهَدوا أنفُسَهُمْ في أنْ يَبلُغوا مَبلَغَ ٱلفاضِلينَ فَعَجَزوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمدوحونَ عِنْدَ ٱلجُمهورِ. وَهوَ بَيِّنٌ أنَّ تَعظيمَ ٱلشَّيْءِ داخِلٌ في ٱلمَدحِ. فَإنَّ ٱلتَّعظيمَ لِلشَّيْءِ تَشريفٌ لَهُ وَٱلتَّشريفُ مِنَ ٱلأُمورِ ٱلَّتي يُمدَحُ بِها. وَيَنبَغي إذا أُريدَ ٱلتَّعظيمُ بِٱلتَّشبيهِ أنْ يُشَبَّهَ بِكَثيرٍ مِنَ ٱلمَحمودينَ فَإنَّ في هٰذا ٱلفِعلِ تَشريفًا لِلمَمدوحِ وَدَلالَةً لِلجُمهورِ عَلَى فَضيلَتِهِ. وَجُملَةُ ٱلقَولِ في ٱلأنواعِ ٱلمُشتَرَكَةِ لِأجناسِ ٱلأقاويلِ ٱلثَّلاثَةِ أنَّ ٱلتَّعظيمَ وَإنْ كانَ مُشتَرَكًا لِأجناسِ ٱلأقاويلِ ٱلخُطبيَّةِ ٱلثَّلاثَةِ فَهوَ أخَصُّ بِٱلمَدحِ وَٱلذَّمِّ. لِأنَّهُ إنَّما يُمدَحُ ٱلإنسانُ أوْ يُذَمُّ بِٱلأشياءِ ٱلمَوجودَةِ ٱلمُعتَرَفِ بِوُجودِها. وَتَعظيمُ ٱلشَّيْءِ أخَصُّ بِٱلمَوجودِ مِنهُ بِٱلمَعدومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنبَغي لِلمادِحِ أنْ يَصِفَ جَلالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهاءَهُ وَزينَتَهُ. وَأمَّا ٱستِعمالُ ٱلعَلاماتِ وَٱلمِثالاتِ فَهوَ أخَصُّ بِٱلمَشورَةِ لِأنَّ مِنَ ٱلأُمورِ ٱلمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتي قَدْ سَلَفَتْ يُحدَسُ عَلَى ٱلَّتي سَتَكونُ وَإعطاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلعِلَّةِ مِنَ ٱلأشياءِ ٱلَّتي قَدْ سَلَفَتْ نَحنُ لَهُ أكثَرُ قَبولًا وَتَعظيمًا لِانقِضائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَأمَّا مَعرِفَةُ ٱلعَدلِ وَٱلجَورِ فَهوَ خاصٌّ بِٱلمُشاجَريَّةِ. وَبِٱلجُملَةِ فَجَميعُ ٱلمَدحِ

وَٱلذَّمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمَقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ أَوِ ٱلذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ أَضْدَادِهَا إِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا أُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَنَفَعَهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَمْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا ۔ وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِيَ فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ ٱلْإِرْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْإِنْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ إِذَا كَانَ سَبِطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ أَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهِنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ أَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلْإِرْتِجَالِ وَٱلْبَدِيهَةِ وَإِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلْإِرْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَأَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ. وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يَعْمَلُ مَحْفُوظًا أَوْ مُرَتَّبًا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إليهم ولا يجوز عنهم العدول بالشهادة على استطاعته وان ذلك المنظوم ابن ساعته. والبديهة ان يتزل على هذه الطبقة قليلا ويفكر مقصرًا لا مطيلا فان اطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية وخرجت من حد البديهة الى حد الروية وعند ذلك تقصر نهضة الاقتدار عن بلوغ ذلك المضمار اذ المرتجل والبادة يقنع منهما بالردي اليسير ولا يقنع من المروي الا بالجيد الكثير وكفاك في ذكرهما قول ابن المعتز :

وَالْفِكْرُ قَبْلَ الْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وقول ابن جريج :

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقِي نَضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وحسبك بهرب امام الشعراء وفاتكهم من البديهة فما ظنك بالارتجال واذا كان عبد الله بن وهب الراسبي رئيس الخوارج في يوم النهروان يقول وهو البدوي الفصيح والاعرابي الصريح اياكم والرأي الفطير والكلام القضيب يقول هذا في مطلق الكلام وهو غير مقيد بوزن ولا قافية فكيف الظن بالمقيد بهما اعتري انه لمقام يجبن فيه الشجاع ويكذب فيه رائد الفكر في طلب الانتجاع .

قال محمد كاتب ابراهيم وكان شاعرًا راويًا وطالبًا للنحو علامة قال : سمعت ابا داود وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام

فقالَ: تلخيصُ ٱلمعاني رِفقٌ وَٱستعانةٌ بِٱلغريبِ عجزٌ وَٱلتَّشادُقُ فِي غيرِ اهلِ ٱلبادِيةِ نقصٌ وَٱلنَّظرُ فِي عُيوبِ ٱلنَّاسِ عِيٌّ ومسُّ ٱللحيةِ هُلكٌ وَٱلخُروجُ مِمَّا بُنِيَ عليهِ ٱلكلامُ إسهابٌ (فقالَ) وسمِعتُهُ يقولُ رأسُ ٱلخِطابةِ ٱلطَّبعُ وعمودُها ٱلدُّربةُ وحلْيُها ٱلإعرابُ وبهاؤُها تخيُّرُ ٱللفظِ وَٱلمحبَّةُ مقرونةٌ بقلَّةِ ٱلاستكراهِ وَانشدَني بيتًا فِي خُطبةِ إيادٍ

يُومونَ بِٱللفظِ ٱلخفيِّ وتارةً   رَمْيَ ٱلملاحِظِ خِيفةَ ٱلرُّقباءِ

(وقالَ) ابنُ ٱلأعرابِي قلتُ لِلمفضَّلِ مَا ٱلإيجازُ عندكَ قالَ حذفُ ٱلفضولِ وتقريبُ ٱلبعيدِ (وتكلَّمَ) ابنُ ٱلسَّماكِ يومًا وجاريةٌ لَهُ تسمعُ فلمَّا دخلَ قالَ لَها كيفَ سمِعتِ كلامي قالتْ إلى أنْ تُفهِمَهُ مَنْ لمْ يفهمْهُ ملَّهُ مَنْ فهِمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرُّف)

قالَ ابنُ ٱلجوزيِّ فِي ٱلمنتخبِ. لمَّا كانتِ ٱلمواعظُ مندوبًا إليها بقولِهِ: فذكِّرْ فإنَّ ٱلذِّكرى تنفعُ ٱلمؤمنينَ وقولِهِ لِعُمَّالِهِ تعاهدُوا ٱلنَّاسَ بِٱلتَّذكِرةِ. ولأنَّ ادواءَ ٱلقلوبِ تفتقرُ إلى ادويةٍ كمَا تحتاجُ امراضُ ٱلبدنِ إلى مُعالجةٍ ٱلفتُ فِي هذَا

الفن كتبا تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ الحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت الفقهاء في قديم الزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من الالفاظ والاسامي لا يخرج عن مرضاة الاوائل ولذلك ما اخذت من العلماء المذكورين من تحسين لفظ او تنجيع وعظ ولا يخرج من قانون الجواد وما ذاك الا بمثابة جمع القرآن الذي ابتدأ به ابو بكر وثنى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم الداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ابتدعت اذ ليست تخارج عن الاعمال المشروع وقال الحسن القصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض القدماء ان الوعظ حبل الله الممدود وعهده المعهود وظله العميم وصراطه المستقيم وجنته الكبرى ومحجته الوسطى وهو الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة الله وعهده ووعيده ووعده به يتعلم الجاهل ويعمل العالم العامل ويتنبه الساهي ويتذكر اللاهي بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الامور من فضائله انه يقرأ دائما ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون الدنيا على من جعل الدين امامه وتصور الموت امامه قال بعض الحكماء الحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

الحيرة ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة والعلم دواء للقلوب العليلة ومشحذ للأذهان الكليلة ونور في الظلمة وأنس في الوحشة وصاحب في الوحدة وسمير في الخلوة ووصلة في المجلس ومادة للعقل وتلقيح للفهم ونافٍ للعِيّ المزري بأهل الأحساب المقصر بذوي الألباب أنطق الله سبحانه أهله بالبيان الذي جعله صفة لكلامه في تنزيله وأيده رسله إيضاحاً للمشكلات وفصلاً بين الشبهات تشرّف به الوضيع وأعز به الذليل وسوّد به المسوّد من تحلّى بغيره فهو معطّل ومن تعطّل منه فهو مغفّل لا تبليه الأيام ولا تخترمه الدهور يتجدد على الابتذال ويذكو على الإنفاق لله على من به من عباده الحمد والشكر. قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة قال ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار وبصرك مواقع رشدك وعواقب عملك. قال السائل ليس هذا أريد قال من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول قال ليس هذا أريد قال: قال النبي إنا معشر الأنبياء فينا تلكأ أي قلة الكلام وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال السائل ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت. قال: ليس هذا أريد. قال عمرو: يا هذا فكأنك تريد تخيير اللفظ في حسن الإفهام. قال: نعم. قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله عز وجل في عقول

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمَؤُونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِالْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَقْبُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِاعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا   حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: ٱقْرَعُوا هَذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ: أَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: لَوْ أُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ الْمَوْعِظَةِ عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا). وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا أَنْ تَلَقَّاهَا بِسَمْعٍ قَدْ وَقَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ احْتِمَالُ الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْآذَانَ. وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ التَّاجَ. وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ. وَمَا أَحْسَنَ الدُّرَّ. وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ. وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ أَحْسَنُ. (وَقَالَ زِيَادٌ) أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا. قَالَ الشَّاعِرُ:

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قَالَتْ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِمَقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللّٰهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبُهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ نَجِدْ إِسَاءَةً خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْزَعَجَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى ... وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلِانْتِزَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

حقِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً   وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تَحْفِرِ
وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ   وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحَجَّبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِاضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ . وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يُجِيلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلما كَانَ ٱلْإِنسَانُ مَوضِعًا لِلسَّهوِ وَٱلنِّسيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهولِ وَٱلغَفلَةِ لِما يَعتَورُهُ وَيَكتَنِفُهُ مِنَ ٱلأَهوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتي بِٱتِّباعِها وَٱلِانقِيَادِ مَعَها يَدخُلُ ٱلِاختِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلكُلِّيِّ وَٱلمَصلَحَةِ ٱلعَامَّةِ ثُمَّ يَسري بِغَايَةِ ٱلسُّرعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلجُزئِيَّةِ وَٱلمَصَالِحِ ٱلخَاصَّةِ فَيُصبِحُ ٱلغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ أُمَمُ ٱلبَهَائِمِ أَولَى بِهِم مِن أُمَمِ ٱلأَنَاسِيِّ بَل كَانَتِ ٱلبَهَائِمُ أَحسَنَ حَالًا مِنهُم كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوضِعَ قَولِهِ: إِن هُم إِلَّا كَٱلأَنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَن يَصحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُستَمِرٌّ يَهدِيهِ إِلَى قَصدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَت بِهِ ٱلخَيَالَاتُ ٱلفَاسِدَةُ وَٱلوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلأَمرُ فِي قَولِهِ وَلتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدعُونَ إِلَى ٱلخَيرِ. فَقَد أَبَانَ أَن لَا صَلَاحَ لِلكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلخَيرِ وَصَرفَهُم عَن نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمرَهُم بِٱلمَعرُوفِ وَنَهيَهُم عَنِ ٱلمُنكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقدَارِ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ إِذَا وُجِدَت وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضلِ مَكَانِهَا حَيثُ جَعَلَهَا مُختَصَّةً بِٱلفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ صَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَرَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٍّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا نَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَنْدَفِعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يُحْكِمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ . فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ . وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ . بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْأَحْوَالِ . فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ . وَإِلَى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ . وَعَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ . فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ . وَهَلْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ . لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ . إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ . قُلْتُ لَكَ : أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ . فَغَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ . أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حِمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا . يَسْرُدُ أَلْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا . كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ الْمُعْجِبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ . فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدْتُ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ اَقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمْعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا ... اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِغَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَشْتَغِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

إلي سِبَابٍ وَمُشَاتَمَةٍ وَٱحْتِقَارِ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى ٱلْقَدْحِ فِي ٱلسَّلَفِ وَصَارَ ٱلِٱخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ مُنْشِئًا لِعَدَاوَةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ ٱلْعَدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَدْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ سَبَبًا لِتَجْرِيدِ ٱلسُّيُوفِ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمْ ٱلْحُكَّامُ لِإِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمُ ٱلْأَوْلَى بِذَلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ ٱلَّذِي مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُمَكِّنُوا مِنْهُ غَيْرَهُمْ وَصَارُوا أَحْزَابًا يَنْحَازُ كُلُّ حِزْبٍ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلنَّوَاحِي وَصَارَتِ ٱلْمَدَائِنُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَعَاقِلِ وَٱلْحُصُونِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُهَا تَحْتَ نَظَرِ ٱلسِّيَاسَةِ وَقَهْرِهَا وَبُدِلَتْ سُيُوفُ ٱلْمَنَابِرِ بِقِطَعِ خَشَبٍ فِي صُورَتِهَا يَتَّكِئُ عَلَيْهَا ٱلْخُطَبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ وَهُبُوطِهِمْ. وَآلَ أَمْرُ ٱلْعُلَمَاءِ إِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنَ ٱلطَّوَائِفِ ٱلْمَرْبُوبَةِ ٱلْمَسُوسَةِ تَلْحَظُ حَرَكَاتِهِمْ أَرْصَادُ ٱلْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عُيُونُهَا مَنْعًا لِتَعَدِّي بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَحَسْمًا لِمَادَّةِ ٱلشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ أَهْوَاءُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْجَائِرَةِ ٱلْجَهَلَةِ مِنَ ٱلتَّتَرِ وَٱلدَّيْلَمِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْجَهَلَةِ ٱلَّذِينَ أَمْضَوْا صُدُورَ أَعْمَارِهِمْ فِي ٱللَّهْوِ وَٱللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَعِيشَةِ حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ ٱلِٱحْتِيَاجِ لِذَلِكَ مِنَ ٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ فَصَنَّفُوا كُتُبًا مَلَأُوهَا أَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ وَرَوَّجُوهَا عَلَى ٱلْعَامَّةِ وَأَكَلُوا بِهَا ٱلْخُبْزَ وَخَلَطُوا مَا لَيْسَ مِنَ ٱلدِّينِ بِهِ. فَأَيُّ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا ٱفْتِرَاقُ ٱلْعُلَمَاءِ وَإِهْمَالُهُمْ أَمْرَ ٱلرِّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ ٱلِٱخْتِلَافُ ٱلَّذِي هُوَ مَنْشَأُ تِلْكَ

ٱلعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعفُ وَتُظهِرُهُ ٱلقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعدَ مَعرِفَةِ هٰذَا أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا ٱلعُلَمَاءُ. وَإِنْ قُلتَ إِنَّهَا ٱلوُعَّاظُ قُلتُ هٰذَا أَقرَبُ فَإِنَّ ٱلوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ أَهلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلأَموَالِ وَأَكثَرُهُمْ كَانَ يَأْلَمُ بِهَا ٱلقِطَعَ مِنَ ٱلعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ. فَكَانَ ٱلوَاعِظُ إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلمَجلِسِ بَسَطَ مِندِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلٌّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِأَجلِ ٱلوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلمَجَالِسِ تَشتَمِلُ عَلَى تَفسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرغِيبِ وَٱلتَّرهِيبِ وَبَعضِ أَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعضِ أَشعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلوَادِي. وَنُموذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلمَسجِدِ ٱلحُسَينِيِّ بَعدَ ٱلعَصرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلجُملَةِ فَمَحصُولُ تِلْكَ ٱلكُتُبِ هُوَ مَحصُولُ خُطَبِ ٱلمَنَابِرِ. وَإِنْ كَانَ بَعضُ أَهلِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلفِطنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَإِنَّ أَكثَرَهُمُ ٱلقُصَّاصُ ٱلجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ أَمرِ ٱلوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يُلَفِّقَ أَحَادِيثَ يَضَعُهَا أَوْ وَضَعَهَا غَيرُهُ يُفرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلعَامَّةِ بِمَا يَذكُرُ مِنْ كَثرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ أَمرِ ٱلمَعصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنزِلَةِ ٱلتَّحرِيضِ عَلَى ٱرتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاستِرسَالِ مَعَ ٱلأَهوَاءِ وَطَرحِ ٱلمُبَالَاةِ ٱعتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِم وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثرَةِ أَسبَابِ ٱلمَغفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحمَةِ وَعِظَمِ ٱلعَفوِ إِلَى غَيرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ الطِّبَاعِ وَاسْتِحْكَامِ الغَفْلَةِ وَالِانْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الِاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ الأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ السُّوءِ وَالتَّمَاكُرِ بِاسْتِلَابِ الأَمْوَالِ وَقَهْرِ النُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ الأَقْوِيَاءِ الضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ مُوَلِّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطِّبَاعِ الَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ الِاكْتِسَابِ بِجِهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّؤَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ المُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذَلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ الطَّوَائِفَ الكَاسِبَةَ بِهَذِهِ الوُجُوهِ الرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ الخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةٍ خُرَافَاتٍ تُخْرِجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ الإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى الِاحْتِيَاجِ وَطَلَبِ المَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ انْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانَ نِسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ المَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأَعْمَالِ ٱلْمُتعِبَةِ وَٱلمُحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يُفرِّقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِاحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِاعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ . وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى رَجَزِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاكِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ ٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْـ (١) ... ـلِ وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادُ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَمْحتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُؤْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمَقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِٱللهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م ... مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ... لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ... تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا ... يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ(١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا ... لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةَ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ... ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا ... حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي ... وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: احْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلَكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذُكِرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ الثَّكْلَى وَأَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَابْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا انْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ الْكَرَمِ

عِتق مَنظَرٍ وَجُودَةَ مَخبَرٍ وَسُهولَةَ لَفظٍ وَجَزَالَةَ مَنطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمَا وَٱلْمَأْثُورِ مِن خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَّامِ مَن سِوَاهُمَا مِن لَدُنِ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبعَثَ أَهلُ ٱلقُبُورِ حَاشَا أَنبِيَاءَ ٱللهِ ٱلكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلفَخرِ إِلَّا عَلَيهِمَا . وَلَقَد كَانَا مَعَ تَهذِيبِ أَخلَاقِهِمَا وَمَعسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلخَيرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلمَأمُونِ كَٱلنُّقطَةِ فِي ٱلبَحرِ وَٱلخَردَلَةِ فِي ٱلقَفرِ



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعلَمْ اَنَّ لِسَانَ ٱلعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّينِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلمَنظُومِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ ٱلمَوْزُونُ ٱلمُقفَّى وَمَعنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلقَافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثرِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ غَيْرُ ٱلمَوْزُونِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلكَلَامِ . فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلمَدحُ وَٱلهِجَاء وَٱلرِّثَاء . وَامَّا ٱلنَّثرُ فَمِنْهُ ٱلكَلَامُ ٱلَّذِي يُؤتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا . وَمِنْهُ ٱلمُرسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطلَقُ فِيهِ ٱلكَلَامُ اِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ. وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ

اَلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِٱسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

اَلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجرِي مَجرَى اَلجُودَةِ اَن يَقُولَ اَوَّلًا مَا فِعلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلاَنوَاعِ اَلشِّعرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ اَلاَقَاوِيلُ اَلشِّعرِيَّةُ وَمِن كَم شَيءٍ تَتَقَوَّمُ وَاَيُّمَا هِيَ اَجزَاؤُهَا اَلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَم اَصنَافُ اَلاَغرَاضِ اَلَّتِي تُقصَدُ بِالاَقَاوِيلِ اَلشِّعرِيَّةِ . وَاَن يَجعَلَ كَلَامَهُ مِنَ اَلاَوَائِلِ اَلَّتِي لَنَا بِالطَّبعِ فِي هٰذَا اَلمَعنَى . (قَالَ) فَكُلُّ شِعرٍ وَكُلُّ قَولٍ شِعرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِاستِقرَاءِ اَلاَشعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشعَارَهُمُ اَلَّتِي كَانَت فِي اَلاُمُورِ اَلاِرَادِيَّةِ اَعنِي اَلحَسَنَةَ وَاَلقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ اَلحَالُ فِي اَلصَّنَائِعِ اَلمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ اَلشِّعرِ اَلَّتِي هِيَ اَلضَّربُ بِالعِيدَانِ وَاَلزَّمرُ وَاَلرَّقصُ اَعنِي اَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِالطَّبعِ لِهٰذَينِ اَلغَرَضَينِ . وَاَلاَقَاوِيلُ اَلشِّعرِيَّةُ هِيَ اَلاَقَاوِيلُ اَلمُخَيِّلَةُ . وَاَصنَافُ اَلتَّخيِيلِ وَاَلتَّشبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنهُمَا . اَمَّا اَلاِثنَانِ اَلبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشبِيهُ شَيءٍ بِشَيءٍ وَتَمثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِاَلفَاظٍ خَاصَّةٍ عِندَهُم مِثلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ اَلعَرَبِ وَهِيَ اَلَّتِي تُسَمَّى عِندَهُم حُرُوفَ اَلتَّشبِيهِ . وَاِمَّا اَخذُ اَلشَّبِيهِ بِعَينِهِ بَدَلَ اَلشَّبِيهِ وَهُوَ اَلَّذِي يُسَمَّى اَلاِبدَالَ فِي هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ اَلشَّاعِرِ :

هُوَ اَلبَحرُ مِن اَيِّ اَلمَوَاضِعِ جِئتَهُ

وَيَنبَغِي اَن نَعلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا اَلقِسمِ تَدخُلُ اَلاَنوَاعُ اَلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهلُ زَمَانِنَا اَستِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثلَ قَولِ اَلشَّاعِرِ :

وَعُرِّيَ اَفرَاسُ اَلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

إلّا أنَّ الكنايات أكثر ذلك هي إبدالات من لواحق الشيء. والاستعارة هي إبدال من مناسبه أعني إذا كان شيء نسبته إلى الثاني نسبة الثالث إلى الرابع فإبدال اسم الثالث إلى الأول وبالعكس. وقد تقدم في كتاب الخطابة من كم شيء تكون الإبدالات. وأمّا القسم الثاني فهو أن يبدّل التشبيه مثل أن تقول: الشمس كأنها فلان أو الشمس هي فلان لا فلان كالشمس ولا هو الشمس

والصنف الثالث من الأقاويل الشعرية هو المركّب من هذين (قال) وكما أنّ الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضاً بالأفعال مثل محاكاة بعضهم بعضاً بالألوان والأشكال والأصوات وذلك إمّا بصناعة وملكة توجد للمحاكين وإمّا من قبل عادة تقدّمت لهم في ذلك. كذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع والتخييل. والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه. وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ. أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة. وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلْمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هَذَيْنِ أَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْأَرْذَلِينَ . وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هَذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ . وَٱلْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هَذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ . أَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هَذَانِ

ٱلفَضلَانِ أَعنِي ٱلتَّحسِينَ وَٱلتَّقبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلفَضلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشبِيهِ وَٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَولِ لَا ٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلوَزنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحنِ. وَقَد يُوجَدُ لِلتَّشبِيهِ بِٱلقَولِ فَصلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشبِيهُ ٱلَّذِي يُقصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلمُشَبَّهِ بِهِ مِن غَيرِ أَن يُقصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحسِينٌ أَو تَقبِيحٌ لٰكِن نَفسُ ٱلمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ هُوَ كَٱلمَادَّةِ ٱلمُعَدَّةِ لِأَن يَستَحِيلَ إِلَى ٱلطَّرَفَينِ أَعنِي أَنَّهَا تَستَحِيلُ تَارَةً إِلَى ٱلتَّحسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيهَا وَتَارَةً إِلَى ٱلتَّقبِيحِ بِزِيَادَةٍ أَيضًا عَلَيهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَت طَرِيقَةُ أُومِيرُوشَ أَعنِي أَنَّهُ كَانَ يَأتِي فِي تَشبِيهَاتِهِ بِٱلمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلمُحسِنَةِ وَٱلمُقبِحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَن إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلمُطَابَقَةِ فَقَط. وَمِنهُم مَن إِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحسِينِ وَٱلتَّقبِيحِ. وَمِنهُم مَن جَمَعَ ٱلأَمرَينِ مِثلُ أُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنفٍ مِن هٰؤُلَاءِ بِأَصنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشهُورِينَ فِي مُدَّتِهِم وَسِيَاسَتِهِم بِٱستِعمَالِ صِنفٍ صِنفٍ مِن أَصنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأَنتَ فَلَيسَ يَعسُرُ عَلَيكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أَشعَارِ ٱلعَرَبِ وَإِن كَانَت أَكثَرُ أَشعَارِ ٱلعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصرٍ فِي ٱلنَّهمِ وَٱلكَرِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّوعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنبَغِي أَن يَتَجَنَّبَهُ ٱلوِلدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِن أَشعَارِهِم بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلكَرَمِ. فَإِنَّهُ لَيسَ تَحُثُّ ٱلعَرَبُ فِي أَشعَارِهَا مِنَ ٱلفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَينِ ٱلفَضِيلَتَينِ وَإِن كَانَت لَيسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلحَثِّ عَلَيهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ ٱلْأَشْعَارَ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتَذُّ بِالتَّشبِيهِ لِلأَشيَاءِ الَّتِي قَد أَحَسَّهَا وَبِالمُحَاكَاةِ لَهَا. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الإِنسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشبِيهِ بِالطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ أَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ الأَشيَاءِ الَّتِي لَا نَلتَذُّ بِإِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ المُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ الاستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعمَلُهَا المَهَرَةُ مِنَ المُصَوِّرِينَ وَلِهَذِهِ العِلَّةِ اُستُعمِلَ فِي التَّعلِيمِ عِندَ الإِفهَامِ وَالتَّخَاطُبِ الإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ الأَمرِ الَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ الإِلذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي الإِشَارَاتِ مِن قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ التَّخيِيلِ فَتَكُونُ النَّفسُ بِحَسَبِ التِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قُبُولًا لَهُ. فَإِنَّ التَّعلِيمَ لَيسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَط بَل وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الفَيلَسُوفِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ التَّعلِيمُ بِالطَّبعِ يَصدُرُ مِن إِنسَانٍ إِلَى إِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذَلِكَ الإِنسَانِ المُعَلِّمِ مِنَ الإِنسَانِ المُتَعَلِّمِ وَالإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَت إِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ لِأُمُورٍ قَد أُحِسَّت فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ المُسَارَعَةِ إِلَى الفَهمِ وَالقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الإِلذَاذِ لِمَوضِعِ التَّخيِيلِ الَّذِي فِيهَا. فَهَذِهِ هِيَ العِلَّةُ الأُولَى المُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَأَمَّا العِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالتِذَاذُ الإِنسَانِ أَيضًا بِالطَّبعِ بِالوَزنِ وَالأَلحَانِ فَإِنَّ الأَلحَانَ يَظهَرُ مِن أَمرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ الَّذِينَ فِي طِبَاعِهِم أَن يُدرِكُوا الأَوزَانَ وَالأَلحَانَ فَالتِذَاذُ النَّفسِ بِالطَّبعِ بِالمُحَاكَاةِ وَالأَلحَانِ وَالأَوزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّنَاعَاتِ الشِّعرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلفِطَرِ ٱلفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ ٱلأُمَّــةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ ٱلأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ. وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِٱلْتِذَاذِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ أَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي مَدِيحَ ٱلأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ. وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ أَعْنِي هِجَاءَ ٱلأَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصِدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ أَنْ يَمْدَحَ ٱلأَخْيَارَ وَٱلأَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلأَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ. فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلأُمَمِ أَوْ لِلأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يَذْكُرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَذْكُرُ أَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَأَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلْكَوْنِ عَلَى أَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا أَوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ. وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى أُومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ أَنَّهُ ٱلَّذِي أَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَشَقُّ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسَبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) وَإِيجادُ صِناعةِ المديحِ يكونُ تعلُّمُها في الأعاريضِ الطويلةِ لا في القصيرةِ ولذلكَ رفضَ المتأخرونَ الأعاريضَ القصارَ التي كانَتْ تُستعمَلُ فِيها وَفي غيرِها مِنْ صَنائِعِ الشِّعرِ. وأخصُّ الأوزانِ بِها هُوَ الوزنُ البسيطُ الغيرُ مركَّبٍ ولكنْ ينبغي ألّا يُبلغَ فِيها مِنَ الطُّولِ إلى حدٍّ يُستكرَهُ. والحدُّ المُفهِمُ جوهرَ صِناعةِ المديحِ هُوَ أنَّها نِسبةٌ ومحاكاةٌ للعَمَلِ الإراديِّ الفاضِلِ الكامِلِ الذي لَهُ قُوّةٌ كُلّيّةٌ في الأُمورِ الفاضِلةِ لا قُوّةٌ جُزئيّةٌ في واحِدٍ واحِدٍ مِنَ الأُمورِ الفاضِلةِ محاكاةً تنفعِلُ لَها النُّفوسُ انفعالاً مُعتدِلاً بِما يولِّدُ فِيها مِنَ الرَّحمةِ والخوفِ وذلكَ بِما يُخيِّلُ في الفاضِلينَ مِنَ النَّقيِّ والنَّظافةِ فإنَّ المحاكاةَ إنَّما هِيَ للهيئاتِ التي تلزَمُ الفضائلَ لا للمَلَكاتِ إذ ليسَ يُمكِنُ فِيها أنْ يُتخيَّلَ. وهذهِ المحاكاةُ بالقَولِ تكمُلُ إذا قُرِنَ بِها اللَّحنُ والوزنُ وقدْ توجَدُ مِنَ المُنشِدينَ أحوالٌ أُخَرُ خارِجةٌ عَنِ الوزنِ واللَّحنِ تجعَلُ القَولَ أتمَّ محاكاةً وهِيَ الإشاراتُ والأخذُ بالوُجوهِ الذي قِيلَ في كتابِ الخطابةِ فأوَّلُ أجزاءِ صِناعةِ المديحِ الشِّعريِّ في العَمَلِ هُوَ أنْ تُحصى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِٱسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحَقِّقٍ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا . وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً : ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا : ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً . وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتَغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ . وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِاحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ . وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ وَٱلِاسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِي ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصْوِيرِهَا بِٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزِّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِي لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْاعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَنْفَعُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلْاحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلْاعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلْاحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعَرِّفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَاِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلمديحِ ومِمَّاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلاُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ . فَاِنَّ ٱلقَولَ فِي هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلمَبْدَإِ وَذٰلِكَ ان ٱلاُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ اُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَاُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ اِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً لِلغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلمُحَاكَاةِ ٱلغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذلِكَ يَكُونُ بِاَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلًّا وَكَامِلَةً وَٱلكُلُّ وَٱلكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ اِذْ كَانَ ٱلوَسَطُ فِي ٱلمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَاِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلجُبَنَاءِ وَٱلمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلمَكَانُ ٱلوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلحَدُّ ٱلفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا أَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا أَنْ تَكُونَ بِأَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَشْخَاصِ نَوْعِهِ إِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعَلُّمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ أَعْنِي أَنَّ ٱلتَّعَلُّمَ إِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا إِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِأَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْمَحْسُوسِ أَعْنِي أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِلَى ٱلْمَحْسُوسِ إِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا إِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعَلُّمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ أَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَإِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ أَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ إِذَا سَمِعُوا ٱلْأَجْزَاءَ ٱلْأَخِيرَةَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْأُولَى وَأَمَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ إِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلعَادَةُ عِندَ ٱليُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَأَمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلأَيَّامِ كَٱلحَالِ عِندَنَا إِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِندَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لٰكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلْحَالِ فِي ٱلأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ إِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ أَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا أُومِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِندَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ ٱشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أعني أن تكون إنما تفعل جميع ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة. وإذا كان ذلك كذلك فواجب أن يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودًا به غرض واحد وأن يكون لأجزائه عظم محدود وأن يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وأن يكون الوسط أفضلها فإن الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام إذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر أيضًا مما قيل من مقصد الأقاويل الشعرية أن المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى أمثالًا وقصصًا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود لأن هذه هي التي يقصد الهرب عنها أو طلبها أو مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. وأما الذين يعملون الأمثال والقصص فإن عملهم غير عمل الشعراء وإن كانوا قد يعملون تلك الأمثال والأحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك أن كليهما وإن كانا يشتركان في الوزن فأحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وإن لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الأحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن فالفاعل للأمثال المخترعة والقصص إنما يخترع أشخاصًا ليس لها وجود أصلًا ويضع لها أسماء وأما الشاعر فإنما يضع أسماء لأشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الأمثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكَيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلَ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَالْمُحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ التَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ الْأُمُورَ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي الْأُمُورَ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ الْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذَٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ فِي التَّخْيِيلِ الشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ الْخُرَافَاتِ الْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ الشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِالْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِالْوُجُوهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ الْمُمَوِّهُونَ مِنَ الشُّعَرَاءِ أَعْنِي الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا الشُّعَرَاءُ بِالْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ اسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ الزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا الشُّعَرَاءَ الْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ الْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ الشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ الْكَامِلَةِ الَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى التَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِالْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ الِاعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِالْمُحَاكِيَاتِ الشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِاتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِاتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَفَنِّنَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَالَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَعْمَالِ فَكَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيط وَمِنْهَا مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ. وَٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَسِيطَةُ هِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعَيِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِدَارَةَ أَوِ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْاِسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا ٱلصِّنْفَانِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبْتَدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْاِسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِٱلْاِسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ وَٱلْاِعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْاِسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ يُبْدَأَ أَوَّلًا بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْاِسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِٱلْاِسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِٱلْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ ٱلْمَقْصُودِ مَدْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يُنَفِّرُ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلْمَمْدُوحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلسَّعَادَةَ وَأَهْلَهَا ٱبْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ ٱلشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا ٱلْاِسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ ٱلشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ ٱلْاِسْتِدْلَالِ مَا خَلَطَ بِٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ ٱلْاِسْتِدْلَالُ وَٱلْإِدَارَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي ٱلْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةِ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

أَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ أَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ وَٱلْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ
أَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَإِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْأَوَّلَ هُوَ ٱسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي إِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِٱسْتِدْلَالُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَٱلْإِدَارَةُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ أَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ أَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) وَأَمَّا اجزاءُ صناعةِ المديحِ من بابِ الكيفيةِ فقد تكلّمنا فيها. وَأَمَّا اجزاؤها من جهةِ الكميّةِ فينبغي ان نتكلّمَ فيها وهو يذكر في هذا المعنى اجزاءً خاصّةً بأشعارهم والذي يُوجد منها في اشعار العرب فهو ثلاثة. الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدرِ في الخطبةِ وهو الذي فيهِ يذكرون الديارَ والآثارَ ويتغزّلون فيهِ والجزء الثاني المدح. والجزء الثالث الذي يجري مجرى الخاتمةِ في الخطبة وهذا الجزء اكثر ما هو عندهم إمّا دعاء للممدوحِ وإمّا في تقريض الشعرِ الذي قالهُ والجزء الأوّل اشهر من هذا الآخرِ ولذلك يسمّون الانتقالَ من الجزء الأوّلِ الى الثاني استطرادًا وربّما اتوا بالمديحِ دون صدرٍ. مثلُ قولِ ابي تمّام:

لهانَ علينا ان نقولَ ونفعلا

ومثلُ قولِ ابي الطيّب:

لكلِّ امرئٍ من دهرهِ ما تعوّدا

ولمّا فرغ من تعديدِ اجزاءِ الشعرِ عندهم (قالَ) فأمّا اجزاءُ صناعةِ المديحِ التي من جهةِ الكيفيّةِ والتي من جهةِ الكميّةِ فقد

أخبرنا بها. فأمّا من أيّ المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك إلى ما تقدّم (قال) وينبغي كما قيل أن لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من أنواع الاستدلالات وأنواع الإدارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحزنة المرققة للنفوس وذلك أنه يجب أن تكون المدائح التي يقصد بها الحثّ على الفضائل مركّبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة أشياء مخوفة محزنة يتفجّع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك أنّ بهذه الأشياء يشتدّ تحرّك النفس لقبول الفضائل فإنّ انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة إلى محاكاة لا فضيلة أو من محاكاة فاضل إلى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحثّ الإنسان ويزعجه إلى فعل الفضائل إذا كان ليس يوجب محبّة لها زائدة ولا خوفا. والأقاويل المديحية يجب أن يوجد فيها هذان الأمران وذلك يكون إذا انتقل من محاكاة الفضائل إلى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالأفاضل أو انتقل من هذه إلى محاكاة أهل الفضائل فإنّ هذه المحاكاة ترقّ النفوس وتدعها إلى قبول الفضائل وأنت تجد أكثر المحاكاة الواقعة في الأقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر إذ كانت تلك هي أقاويل مديحية تدلّ على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف وإخوته وغير ذلك من الأقاصيص التي تسمّى مواعظ (قال) وإنّما تحدث الرحمة والرقّة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُمْ أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذَٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذَٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذَٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذَٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذَٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلأَصْدِقَاءِ. وَأَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ أَوْ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مُخْرَجُهَا مُخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ آهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَإِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ أَيِّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

الرحمة والخوف فانما يقدر الانسان على ذلك اذا التمس . اي الاشياء هي الصعبة من النوائب التي تنوب واي الاشياء هي الاشياء اليسيرة الهينة التي ليس يلحق عنها كبير حزن ولا خوف وامثال هذه الاشياء هي ما ينزل بالاصدقاء بعضهم من بعض من قبل الارادة من الرزايا والمصائب لا ما ينزل بالاعداء بعضهم من بعض فان الانسان ليس يحزن ولا يشفق لما ينزل من السوء بالعدو من عدوه كما يحزن ويخاف من السوء النازل بالصديق من صديقه وان كان قد يلحق عن ذلك ألم فليس يلحق مثل الالم الذي يلحق من السوء الذي ينزل من المحبين بعضهم ببعض مثل قتل الاخوة بعضهم بعضا او قتل الآباء الابناء او الابناء الآباء وهذا الذي ذكره كان قصص ابراهيم فيما أمر في ابنه في غاية الاقاويل الموجبة للحزن والخوف (قال) والمدح انما ينبغي ان يكون بالافعال الفاضلة التي تصدر عن ارادة وعلم لان من الاشياء ما يفعل عن ارادة وعلم ومنها ما يفعل لا عن ارادة ولا علم ومنها يفعل عن علم لا عن ارادة او عن ارادة لا عن علم وكذلك الافعال منها ما تكون لمن يعرف ولمن لا يعرف فالفعل اذا صدر من غير معرفة ولا ارادة فليس يدخل في باب المديح وكذلك اذا كان صادرا من غير معروف لانه يكون حينئذ في الاكذوبات أدخل منه في الشعر ولا يجب ان يحاكى . واما الافعال التي لا يشك انها صدرت عن ارادة ومعرفة

وعن معروفين لما احسن الاستدلال الذي يكون في هذه الافعال (قال) فاما في حسن قوام الامور التي تركب منها الاشعار وكيف ينبغي ان يكون تركيبها فقد قلنا في ذلك قولا كافيا فاما اي العادات هي العادات التي ينبغي ان تحاكى في المدح فقد يجب ان نقول فيها فنقول ان العادات التي تحاكى عند المدح الجيد اعني الذي يحسن موقعها من السامعين اربعة احداها العادات التي هي خيرة وفاضلة في ذلك الممدوح فان الذي يؤثر في النفس هو محاكاة الاشياء الحق الموجودة في ذلك الممدوح وكل جنس ففيه خير ما وان كان فيه اشياء ليست خيرا. والثانية ان تكون العادات من التي تليق بالممدوح وتخلع له وذلك ان العادات التي تليق بالمرأة ليست تليق بالرجل. والثالثة ان تكون من العادات الموجودة فيه على اتم ما يمكن ان توجد فيه من الشبه والموافقة. والرابعة ان تكون معتدلة متوسطة بين الاطراف وانما كان ذلك كذلك لان العوائد الرذلة ليس مما يمدح بها وكذلك العوائد التي لا تليق بالممدوح وان كانت جيادا وكذلك العوائد اللائقة اذا لم توجد على اتم ما يمكن فيها من المشابهة او لم توجد مستوفاة والعوائد التي هي خير وتدل على الخلق الخير الفاضل منها ما هي كذلك في الحقيقة ومنها ما هي كذلك في المشهور ومنها ما هي شبيهة بهذين والعوائد الجياد اما حقيقية واما شبيهة بالحقيقية واما مشهورة او شبيهة بالمشهورة وكل

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَأَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى أَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ أَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْأَخْلَاقَ وَأَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِأُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

أَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ   وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ   إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْأَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَأَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى أَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجَوْدَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

أنواعٌ كثيرةٌ فمنها أن تكونَ المحاكاةُ لأشياء محسوسةٍ بأشياء محسوسةٍ من شأنها أن توقع الشكَّ لمن ينظرُ إليها وتوهمُ أنها هي لاشتراكها في أحوالٍ محسوسةٍ وذلكَ مثل تسميتهم لبعض صورِ الكواكبِ سرطانًا ولبعضها ممسكَ الحربةِ لأنها من جهةِ الشكلِ يمكن أن يتوهمَ متوهمٌ أنها هي هي. وجلُّ تشبيهاتِ العربِ راجعةٌ إلى هذا الموضعِ ولذلكَ كانت حروفُ التشبيهِ عندهم تقتضي الشكَّ وكلما كانت هذهِ المتوهماتُ أقربَ إلى وقوعِ الشكِّ كانت أتمَّ تشبيهًا وكلما كانت أبعدَ من وقوعِ الشكِّ كانت أنقصَ تشبيهًا وهذهِ هي المحاكاةُ البعيدةُ وينبغي أن تطرحَ وذلكَ مثلُ قولِ امرىءِ القيسِ في الفرسِ:

كأنها هراوةُ منوالِ

ومثلُ قولهِ:

إذا أقبلتْ قلتْ دبّاءةٌ من الخضرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ
وإن أدبرتْ قلتْ أثفيةٌ ململمةٌ ليسَ فيها أثرْ

وإن كانَ هذا أقربَ من الأولِ لأنَّ فيهِ مقابلةً ما. ومنها أن تكونَ المحاكاةُ لأمورٍ معنويةٍ بأمورٍ محسوسةٍ إذ كانَ لتلكَ الأمورِ أفعالٌ مناسبةٌ لتلكَ المعاني حتى توهمَ أنها هي مثلُ قولهم في المنةِ إنها طوقُ العنقِ وفي الإحسانِ قيدٌ كما قالَ أبو الطيبِ:

ومن وجدَ الإحسانَ قيدًا تقيدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ . وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ :

كُثُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ . فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ :

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ :

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا
وَكَانُوا كَفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهٰنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِـهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْـدَنَا ... لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَـا ... وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْـلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِـيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْـكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى ... دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَـبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى

فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَـدْرِي

دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَـأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى الصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي ... مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا ابْيَاضَّ الضُّحَى آنَسْتُ ضَوْءَهُ ... يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا النَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا الْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا الْأَحِبَّةَ بِالدِّيَارِ وَالْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا الْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ الْأَحِبَّةِ بِالْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ الْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ الْعَرَبِ وَالْمُحْدَثِينَ فِي الْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ اسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الشِّعْرِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الرِّثَاءِ كَمَا قَالَ الْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ ... فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنَ الْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا التَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْقِ أَوِ الْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَالتَّصْرِيحُ بِالتَّشْبِيهِ خِلَافُ التَّشْبِيهِ فَإِنَّ التَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَالتَّصْرِيحَ بِالشَّبِيهِ بَيْنَ اثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ الشَّبَهِ وَهُوَ الْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعْرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ:

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

اَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْاَصَمِّ ٱلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوسَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

الإرادية. وأكثر ما يوجد هذا النوع من الاستدلال في الكتاب العزيز أعني في مدح الأفعال الفاضلة وذمّ الأفعال الغير فاضلة وهو قليل في أشعار العرب. ومثال الإدارة في المدح قول القرآن: ضرب الله مثلا كلمة طيبة إلى قوله: ما لها من قرار. ومثال الاستدلال قوله: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الآية.

(قال) وإجادة القصص الشعري والبلوغ به إلى غاية التمام إنما يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء او القضية الواقعة التي يصفها مبلغا يري السامعين له كأنه محسوس ومنظور اليه ويكون مع هذا ضدّه غير ذاهب عليهم من ذلك الوصف وهذا يوجد كثيرا في شعر الفحول والمفلقين من الشعراء لكن إنما يوجد هذا الجزء من التخييل للعرب إما في افعال غير عفيفة وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط فمثال ما ورد من ذلك في الفجور قول امرئ القيس:

سموت اليها بعد ما نام اهلها سموّ حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي ألست ترى السمار والناس احوالي
فقلت يمين الله ابرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي

ومثال ما ورد من ذلك مما القصد به مطابقة التشبيه فقط قول ذي الرمة يصف النار:

وسقط كعين الديك عاورت صحبتي
اباها وهيأنا لموقعها وكرا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذَٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يُحَصِّلَ ٱلْإِنْسَانُ أَوَّلًا جَمِيعَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذَٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذَٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهْوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحَالُ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الْإِسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الْإِنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنَ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا ٱلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هَذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هَذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هَذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هَذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقِنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ أَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلْإِنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تُثَبَّتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ أَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ هَا هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحُزْنِيَّةِ ٱلْمَخُوفَةِ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تُهَجِّنُهَا إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ بِمَحْضَرِ ٱلْمَلَإِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايِ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هٰذَا أَنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغضَابِ ٱلناصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلقَوْلَ وَٱلقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلأَشْكَالِ ٱلخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلأَخْذَ بِٱلوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلقَوْلِ شَكْلَ ٱلخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَٱلأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تدلُّ تلكَ ٱلأَسْماء ٱلَّتي رُكِّبَ مِنْها مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وعَبْدِ ٱلقَيْسِ (قالَ) وكُلُّ ٱسمٍ فهوَ اما حَقيقيٌّ وإمَّا دَخيلٌ في ٱللِّسانِ وإمَّا مَنقولٌ نادِرُ ٱلِاسْتِعْمالِ وإمَّا مُزَيَّنٌ وإما معمولٌ وإمَّا مَعقولٌ وإمَّا مُفارَقٌ وإمَّا مُغيَّرٌ . فٱلحَقيقيُّ هوَ ٱلِاسمُ ٱلَّذي يَكونُ خاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وٱلدَّخيلُ هوَ ٱلَّذي يَكونُ لِأُمَّةٍ أُخرى فَيُدْخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ في شِعْرِهِ وذلِكَ مِثْلُ ٱلإِسْتَبْرَقِ وٱلْمِشْكاةِ وغَيْرِ ذلِكَ مِنَ ٱلأَسْماء ٱلأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخيلَةِ في لِسانِ ... أمَّا ٱلِاسمُ ٱلنَّادِرُ ٱلمَنقولُ فَهوَ نَقْلُ ٱسمٍ غَريبٍ إمَّا مِنَ ٱلنوعِ إلى ٱلجِنسِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلقَتْلِ مَوْتًا وإمَّا مِنَ ٱلجِنسِ إلى ٱلنَّوعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ حَرَكَةً وإمَّا مِنْ نَوعٍ إلى نَوعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلخِيانَةِ سَرِقَةً وإمَّا أنْ يُنقَلَ شَيْءٌ مَنسوبٌ إلى ثانٍ إلى شَيْءٍ ثالِثٍ مَنسوبٍ إلى رابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلأوَّلِ إلى ٱلثَّاني مِثْلَ ما كانَ يُسَمِّي بَعْضُ ٱلقُدَماء ٱلشَّيخوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلعُمْرِ ويُسَمِّي ٱلعَشِيَّةَ شَيْخوخَةَ ٱلنَّهارِ وذلِكَ أنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيخوخَةِ إلى ٱلعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلعَشِيَّةِ إلى ٱلنَّهارِ وأمَّا ٱلِاسمُ ٱلمَعمولُ ٱلمُرتَجَلُ فَهوَ ٱلِاسمُ ٱلَّذي يَختَرِعُهُ ٱلشاعِرُ ٱختِراعًا ويَكونُ هوَ أوَّلَ مَنِ ٱستَعمَلَهُ وهذا غَيرُ مَوجودٍ في أشعارِ ٱلعَرَبِ وإنَّما يوجَدُ ذلِكَ في ٱلصَّنائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وأكثَرُ ما في ٱلصَّنائِعِ هوَ مَنقولٌ لا مَعمولٌ مُختَرَعٌ ورُبَّما ٱستَعمَلَهُ ٱلمُحدَثونَ مِنَ ٱلشُّعَراء عَلى طَريقِ ٱلِاستِعارَةِ أعني ٱلمَنقولَ إلى ٱلصَّنائِعِ مِثْلُ قَولِ أبي ٱلطَّيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا ٱلْمُفَارِقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ أَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارِقِ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ أَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيمَا أَحْسَبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلِفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱلِٱسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَأَمَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ إِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَإِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَإِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْأَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَفَقَّدَ مَنِ ٱلْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِهِ هَذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأُخَرِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُتَوَلِّيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْأَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ أَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ أَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ أَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ إِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَإِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُتَوَلِّيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْأُخَرِ وَأَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُتَوَلِّيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ أَوِ ٱلْغَرِيبَةِ أَوِ ٱلْأَلْسُنِ أَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ أَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ أَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَوَلِّيَةِ فَيَخْرُجَ إِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا أَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُتَوَلِّيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَأَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَـةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتِهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَجْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ احِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحَمْلِ وَٱلْحَمَلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِيرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ . وَأَمَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءٍ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ . وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ :

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ :

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ أَبُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُؤُ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا أَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلأَسْمَاءِ ٱلغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ ٱلقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ أَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا أَوْ قَوْلًا شِعْرِيًّا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِٱلأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ:

يَا دَارُ أَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا أُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَأَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَأَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلإِنْسِ وَٱلأُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلأَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُوَازَنَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقَابِلِ إِلَى الْمُقَابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ . وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى . وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ : فُلَانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ سَبَبُ السُّنَّةِ . وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا . وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ . وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ : مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ : أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضَائِلَ لِيَنْفِيَ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْهَا مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ . وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ :

فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدِّ كَقَوْلِهِ : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيَّاتِ

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا ٱلْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْأَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ ٱلْإِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ أَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْإِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْإِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ أَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَأَمَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْأَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تَنْقُلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَأَثْنَى ثَنَاءً عَامًّا عَلَى أُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَأَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قَالَ) وَأَجْزَاءُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ هِيَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلْعَفِيفَةِ مِنَ ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ وَٱلتَّرْكِيبِ مِنْهُمَا. وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا ٱنْفِعَالِيًا كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ . وَصَنَائِعُ ٱلشِّعْرِ وَأَحْكَامُهَا فِي ٱلتَّلْحِينِ وَٱلْغِنَاءِ أَحْكَامُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ . وَذَكَرَ فُرُوقًا بَيْنَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَبَيْنَ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ ٱلْأُخَرِ عِنْدَهُمْ وَخَوَاصَّ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلْأُخَرُ فِي ٱلْأَوْزَانِ وَٱلْأَجْزَاءِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَٱلْقَدْرِ وَأَنَّ هَاهُنَا أَوْزَانًا هِيَ أَلْيَقُ بِبَعْضِ ٱلْأَشْعَارِ مِنْ بَعْضٍ وَذَكَرَ مَنْ أَجَادَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَأَثْنَى فِي هٰذَا كُلِّهِ عَلَى أُومِيرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثَالُهُ عِنْدَنَا إِمَّا لِأَنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذِي ذَكَرَ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْأَكْثَرِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضَ لِلْعَرَبِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ ٱلطَّبْعِ وَهُوَ أَبْيَنُ فَإِنَّهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلشَّاعِرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَسِيرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُحَاكَى كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أُومِيرُوشُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَعْمَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَ فِي ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْتَدْ لٰكِنْ مَا قَدِ ٱعْتِيدَ فَإِنَّ غَيْرَ ٱلْمُعْتَادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ ... إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ. وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلَّتِي بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذَيْنِهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشْبِهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبِبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبِّهَ ٱلشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ   وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ أَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ :

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ   مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ :

ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ   حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا   أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ   طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ أَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَا هُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَٱلْجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ:

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ أَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ:

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ. وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ أَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ. وَٱسْمُ ٱلْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْأَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ. وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ. وَٱلْأَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحَرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ. ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَأَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى ٱلْيَوْمِ. وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَأَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ. وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ أَوْسٌ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ أَوْسٍ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسٌ زَوْجَ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ أَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ اخْتَلَفَ فِي ذَٰلِكَ الْعُلَمَاءُ وَادَّعَتِ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذَٰلِكَ لِقَائِلِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذَٰلِكَ شِعْرًا فَادَّعَتِ الْيَمَانِيَةُ لِامْرِئِ الْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدٍ لِعَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَالْمُرَقِّشِ الْأَكْبَرِ وَإِيَادٌ لِأَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَفْوَهَ الْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ الْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ النَّفَرُ الْمُدَّعَى لَهُمُ التَّقَدُّمُ فِي الشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ أَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) أَوَّلُ مَنْ قَالَ الشِّعْرَ ابْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ): الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعَرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ فِي امْرِئِ الْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ إِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ : ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمَنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ : أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ : مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ . وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا . وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ : كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ : وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ . وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ : أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ . (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحٰرِثَ بْنَ حِلِّزَةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ . ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ : عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ الْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ قَالَ: أَعَنِ الْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَالْإِسْلَامُ قَالَ: الْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ الشِّعْرِ قُلْتُ: وَالْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ الْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ الْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ الشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) الْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ... كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيًا وَاغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى ... فَشُقِّي الْجَيْبَ وَانْتَحِبِي انْتِحَابَا

فَاتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ الشُّعَرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ الْوَقْتِ فَالْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَالْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا الْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ الْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ أَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ. وَأَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا أَشُكُّ أَنِّي أَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو يَقُولُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ: أَرْبَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ: ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ أَحْمَرَ: زُهَيْرٌ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ: لَبِيدٌ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: طَرَفَةُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْأَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِٱتِّفَاقِ. وَكَانَ ٱبْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْأَكْبَرُ وَأَشْعَرُ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ أَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: أَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ وَقِيلَ أَوْسَ بْنَ حَجَرٍ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ. وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ: فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهَذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ: أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: أُفْتِتِحَ ٱلشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ٱلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلْجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلْإِسْلَامِيُّ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَعْشَى وَٱلْأَخْطَلُ وَأَبُو ٱلْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ ٱلْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسِمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلْإِشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْحَسَنِ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلْآدَابِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللّٰهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلْمُحْدَثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نَدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّوْرِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ أَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَإِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا أَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ أَيْ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْأَعْشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ:

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرْهُمُ كُلَّ لَيْلَةٍ ... بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنَقُ

وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنَّمَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنَ

الشيء احسنه ويلغي ما لا يستحسنه فليس مأخوذا به ولكن اقواما ارادوا ان يرفعوا انفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل ويعلوا اقدارهم الساقطة بالطعن على اهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك الا ضعة ولا يزداد الآخر الا ارتفاعا. الا ترى الى ابن المعتز قد قتل اسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بآدبه وشعره وفضله وحسن اخباره وتصرفه في كل فن من العلوم الا رفعة وعلوا ولا نظر الى اضداده كلما ازدادوا في طعنه وتقريظ انفسهم. واسلافهم الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة وكلما وصفوا اشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا فاذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع بأمر الدين وهجاء آل ابي طالب وهم اول من فعل ذلك وشنع به على آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه فعدلوا عن عيب انفسهم بذلك الى عيبه وارتكبوا اكثر منه. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وادبه ولقد قرأت بخط عبيد الله بن طاهر رقعة اليه بخطه وقد بعث اليه برسالة الى ابن حمدون في انه يجوز ولا ينكر ان يغير الانسان بعض نغم الغناء

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَبِيدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعَبِيدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْأَ م يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ أَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا . وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ . وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ . وَامَّا أَصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ أَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْأَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ وَٱلْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنهُم نَابِغَةُ بنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ اوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْاخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْاخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْاهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُغِيلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْاضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ ابُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ انْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْاضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْاصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحداً. هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون. واما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عصره. ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلام واسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحاً اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلاً عمن بعده في المنزلة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرماً كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال: أذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

الجاهليّة على إبلٍ قطعوا آذانها فسُمّي كلُّ من أدرك الجاهليّة والإسلام مُخضرَمًا وزعم أنّه لا يكون مُخضرمًا حتّى يكون إسلامُهُ بعد وفاة الرّسول وقد أدركه كبيرًا فلم يُسلِم (قال) ابن رشيق: وهذا عندي خطأٌ لأنّ النابغة الجعديّ ولبيدًا قد وقع عليهما هذا الاسم فامّا عليّ بن الحسن كُراعٌ فقد حكى: شاعرٌ مُحضرَمٌ بحاء غير مُعجَمةٍ مأخوذٌ من الحضرمة وهي الخالطة لأنّه خلط الجاهليّة والإسلام وقالوا: الشعراء أربعة: شاعرٌ خنذيذٌ وهو الّذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيّد من شعر غيره. وسُئل رؤبة عن الفحول فقال: هم الرُّواة. وشاعرٌ مفلقٌ وهو الذي لا رواية له إلّا أنّه مُجوِّدٌ كالخنذيذ في شعره. وشاعرٌ فقط وهو فوق الرّديء بدرجةٍ وشعرورٌ وهو لا شيء. قال بعض الشعراء:

يا رابعَ الشُّعراء كيف هجوتني ... وزعمتَ أنّي مُفحَمٌ لا أنطِقُ

وقيل بل هم شاعرٌ مُفلِقٌ، طَبِقٌ وشُوَيعرٌ وشعرورٌ والمُفلِقُ الّذي يأتي في شعره بالفَلَقِ وهو العجب وقيل الداهية (قال الأصمعيّ) الشُّوَيعر مُحرَانُ بن أبي حُمرانَ سمّاه بذلك امرؤ القيس ومثل عبد العزيز المعروف بالشُّوَيعر. قال الجاحظ: والشاعر عبدُ ياليل من بني سعد بن ليثٍ وقيل اسمُهُ ربيعةُ بن عثمان وقال بعضهم شاعرٌ وشُوَيعرٌ وشعرورٌ. قال العبديّ في شاعرٍ يُدعى المُفوَّف من بني ضبّة ثمّ من بني حُمَيس:

ألا تنهى سَراةُ بني حُمَيسٍ ... شُوَيعرَها فُوَيلِيَةَ الأفاعي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا . وَقَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوقَ ٱلْخُنفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ :

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ   وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
إِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهْ   زَلَّتْ بِهِ إِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ   فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ   وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ : وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ . قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ : أَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ أَيْ أَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ : إِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَيْ أَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ : هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ . اه . وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْإِزَا ... رِ فَذَلِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلْاِضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُحْوِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مُخْتَلِّ ٱلْأَسْمَاعِ وَٱلْقُلُوبِ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ   مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا تَنْفَكُّ تَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيِّنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضرًا. وَاَمَدُّ عصرا وَذٰلِكَ اَنَّ اَلشَّاعِرَ اِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ اَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَاِنْ حَكَى عَنْ نَفسِهِ وَاِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِاَنْ يَهلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ اَبْنُ جِنِّيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا اَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حدَّثنا اَبُو عَبْدِ اللهِ اَلْغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ: دَخَلَ اَلنَّابِغَةُ عَلَى اَلنُّعْمَانِ بْنِ اَلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ اَلْاَرْضُ اِنْ تَفقِدْكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ اِلَيهِ اَلنُّعمَانُ نَظَرَ غَضبَانَ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: اَصْلَحَ اَللهُ اَلْمَلِكَ اِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنهُ هُوَ

لِاَنَّكَ مَوْضِعُ اَلْقِسْطَاسِ مِنْهَا فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا اَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ اَلنُّعمَانُ وَاَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ . فَاِنْ كَانَ اَلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ اَلْمَلِكِ اَلْاَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَاَستِهجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ اَمرِهِ وَاَلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا اَعذَرُ لِاَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ أَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِاسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عُنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَعْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ تُجَنِّسَ أَوْ تُطَابِقَ أَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ أَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ أَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتْقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ ٱلْقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حُسْنَ نَسَقِهِ ٱلْكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ ٱلْجَارَ مِثْلُ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو ... لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ ... أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَطْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ فِي ٱلْقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلْبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أَنظَفُ أَصحابِهِ شِعرًا وَأَكثَرُهُمْ بَدِيعًا وَأَفتَنُّهُمْ وَأَقرَبُهُمْ قَوافِيَ وَأَوزَانًا وَلَا أَرَى وَرَاءَهُ غَايَةً لِطَالِبِهَا فِي هٰذَا ٱلبَابِ. غَيرَ أَنَّا لَا نَجِدُ ٱلْمُبتَدِئَ فِي طَلَبِ ٱلتَّصنِيعِ وَمُزَاوَلَةِ ٱلكَلَامِ أَكثَرَ ٱنتِفَاعًا مِنهُ بِمُطَالَعَةِ شِعرِ حَبِيبٍ وَشِعرِ مُسلِمِ بنِ ٱلوَلِيدِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلفَضِيلَةِ لِمُبتَغِيهَا وَلِأَنَّهُمَا طَرَقَا إِلَى ٱلصَّنعَةِ وَمَعرِفَتِهَا طَرِيقًا سَابِلَةً وَأَكثَرَا مِنهَا فِي أَشعَارِهِمَا تَكثِيرًا سَهَّلَهَا عِندَ ٱلنَّاسِ وَجَسَّرَهُمْ عَلَيهَا. عَلَى أَنَّ مُسلِمًا أَسهَلُ شِعرًا مِن حَبِيبٍ وَأَقَلُّ تَكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَن تَكَلَّفَ ٱلبَدِيعَ مِنَ ٱلمُوَلَّدِينَ وَأَخَذَ نَفسَهُ بِٱلصَّنعَةِ وَأَكثَرَ مِنهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلأَشعَارِ ٱلمُحدَثَةِ قَبلَ مُسلِمٍ إِلَّا ٱلنُّبَذُ ٱليَسِيرَةُ. وَهُوَ زُهَيرُ ٱلمُوَلَّدِينَ كَانَ يُبطِئُ فِي صَنعَتِهِ وَيُجِيدُهَا. وَقَالُوا: أَوَّلُ مَن فَتَقَ ٱلبَدِيعَ مِنَ ٱلمُحدَثِينَ بَشَّارُ بنُ بُردٍ وَهُوَ سَاقَةُ ٱلعَرَبِ وَآخِرُ مَن يُستَشهَدُ بِشِعرِهِ ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا مُقتَدِيًا بِهِمَا كُلثُومُ بنُ عَمرٍو ٱلعَتَّابِي وَمَنصُورٌ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسلِمُ بنُ ٱلوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ وَٱتَّبَعَ هٰؤُلَاءِ أَبُو تَمَّامٍ وَٱلبُحتُرِيُّ وَعَبدُ ٱللهِ بنُ ٱلمُعتَزِّ فَٱنتَهَى عِلمُ ٱلبَدِيعِ وَٱلصَّنعَةِ وَخُتِمَ بِهِ. وَشَبَّهَ قَومٌ أَبَا نُوَاسٍ بِٱلنَّابِغَةِ لِمَا ٱجتَمَعَ لَهُ مِنَ ٱلجَزَالَةِ مَعَ ٱلرَّشَاقَةِ وَحُسنِ ٱلدِّيبَاجَةِ وَٱلمَعرِفَةِ بِمَدحِ ٱلمُلُوكِ. وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَد شَبَّهُوهُ بِٱمرِئِ ٱلقَيسِ لِتَقَدُّمِهِ عَلَى ٱلمُوَلَّدِينَ وَأَخذِهِمْ عَنهُ. وَمِن كَلَامِهِمْ: بَشَّارٌ أَبُو ٱلمُحدَثِينَ. وَسَمِعنَا أَبَا عَبدِ ٱللهِ غَيرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: إِنَّمَا سُمِّيَ ٱلأَعشَى صَنَّاجَةَ ٱلعَرَبِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَن ذَكَرَ ٱلصَّنجَ فِي شِعرِهِ. قَالَ وَيُقَالُ بَل سُمِّيَ صَنَّاجَةً لِقُوَّةِ طَبعِهِ وَحِليَةِ شِعرِهِ يُخَيَّلُ إِلَيكَ إِذَا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع

انقضى كلام عبد الله ورجعنا الى القول في الطبع والتصنيع. فإذا كان الشاعر مصنعا فإن جيده من سائر شعره كأبي تمام. فصار محصورا معروفا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحتري. ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر خفر ورأس صنتع

وذكر قول أبي تمام. (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الأحفر إلا أن أبا تمام. كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام. وغيره منا وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم. غير أني لو شئت أن أقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار إليه من جهة أبي تمام. إنما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام. الذي هو روحه. وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به إنما هو فصيح

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ إِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْمُقَعَّبَ أَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْأَحْفَرِ . فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَإِنَّمَا هُوَ هٰذَا مُعَرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ . وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ : كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَٱسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ : وَٱللّٰهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْأَدَبِ غُرَبَاءُ . وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَأَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ : يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ . فَقَالَ لَهُ : وَأَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ . وَيُرْوَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ أَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَأَجَابَهُمَا . وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ إِنَّمَا أَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ أَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ . وَأَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ . وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ أَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ إِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا . وَمِنْ

أَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلٌ ٱلْغَنَوِيُّ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ . وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْأَصْمَعِيِّ . وَسَأُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَأَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِأُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَأَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلَهُ :

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... أُطَأْ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا أَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا ... إِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

وَلَوْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى ٱلْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا أَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَأَخِّرُ ٱلْعَصْرِ . وَمَا أَنْحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا أَتَّعِقُ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَأَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِيجَازِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْأَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ لِشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

اَيضًا بمدحِهِ الثناء عليهِ فيكونَ ذلكَ على وجههِ . وَالبيتُ مِنَ الشعرِ كالبيتِ مِنَ الابنيةِ وَالشعرِ قرارهُ الطبعُ وسمكهُ الروايةُ ودعائمهُ القلمُ وبابهُ الدربةُ وساكنهُ المعنى وَلا خيرَ في بيتٍ غيرِ مسكونٍ . وصارتِ الاعاريضُ وَالقوافي كالموازينِ والامثلةِ للابنيةِ او كالاواخيِ وَالاوتادِ للاخبيةِ . واَمَّا مَا سوى ذلكَ مِنْ محاسنِ الشعرِ فانما هوَ زينةٌ مستأنفةٌ لوْ لمْ تكنْ لاستغنيَ عنها . قالَ القاضي عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجرجانيُّ صاحبُ كتابِ الوساطةِ : الشعرُ علمٌ مِنْ علومِ العربِ يشتركُ فيهِ الطبعُ وَالروايةُ وَالذكاء ثمَّ تكونُ الدربةُ مادةً لهُ وقوةً لكلِّ واحدٍ مِنْ اسبابهِ فمن اجتمعتْ لهُ هذهِ الخصالُ فهوَ المحسنُ المبرزُ وبقدرِ نصيبهِ منها تكونُ مرتبتهُ مِنَ الاحسانِ . قالَ ولستُ افصلُ في هذهِ القضيةِ بينَ القديمِ وَالمحدثِ وَالجاهليِّ وَالمخضرمِ وَالاعرابيِّ وَالمولدِ الَّا انّي ارى حاجةَ المحدثِ الى الروايةِ امسَّ واجدهُ الى كثرةِ الحفظِ افقرَ فاذا استكشفتَ عنْ هذهِ الحالةِ وجدتَ سببها وَالعلةَ فيها انَّ المطبوعَ الذي لا يمكنهُ تناولَ الفاظِ العربِ الَّا روايةً وَلا روايةَ وَلا طريقَ الى الروايةِ الَّا السمعُ وملاكُ السمعِ الحفظُ . وقالَ دعبلٌ في كتابهِ مَنْ ارادَ المديحَ فبالرغبةِ ومَنْ ارادَ الهجاء فبالبغضاء ومَنْ ارادَ التشبيبَ فبالشوقِ وَالعشقِ ومَنْ ارادَ المعاتبةَ فبالاستبطاء : فقسمَ الشعرَ كهذهِ الاقسامِ الاربعةِ وكانَ الرثاء عندهُ مِنْ بابِ المدحِ على ما قدمتُ . الَّا انهُ جعلَ العتابَ

بَدَلًا منهُ وقالَ غيرُ واحدٍ منَ ٱلعُلَماء: ٱلشِّعرُ ما ٱشتَمَلَ على ٱلمَثَلِ ٱلسَّائرِ وَٱلاستعارةِ ٱلرَّائعةِ وَٱلتَّشبيهِ ٱلواقعِ وما سوى ذلكَ فإنَّما لقائِلهِ فضلُ ٱلوزنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبيلُ ٱلشَّاعرِ إذا مدحَ مَلِكًا ان يَسلُكَ طريقةَ ٱلإيضاحِ وَٱلإشادةِ بذكرِ ٱلممدوحِ وان يجعَلَ معانيَهُ جَزلةً وألفاظَهُ نقيَّةً غيرَ مُبتذَلَةٍ سُوقيَّةٍ ويجتنِبَ مع ذلكَ ٱلتَّقصيرَ وَٱلتَّطويلَ فإنَّ للمَلِكِ سآمةً وضجرًا وربما عابَ من اجلِها ما لا يُريدُ حِرمانَهُ وقد رَأيتَ عَمَلَ ٱلبحتريِّ إذا مدحَ ٱلخليفةَ كيفَ يُقِلُّ ٱلأبياتَ ويُبرِزُ وجوهَ ٱلمعاني فإذا مدحَ ٱلكُتَّابَ عَمِلَ طاقتَهُ وبلغَ مُرادَهُ. وقد حُكِيَ عن عُمارةَ انَّ جدَّهُ جريرًا قالَ: يا بنيَّ إذا مدحتُم فلا تُطيلوا ٱلممادحةَ وإذا هجوتُم فخالِفوا. وحكى آخرُ قالَ: دخلَ ٱلفرزدقُ على عبدِ ٱلرَّحمانِ ٱبنِ أمِّ ٱلحكمِ فقالَ لهُ عبدُ ٱلرَّحمانِ: يا ابا فراسٍ دَعني من شِعرِكَ ٱلَّذي ليسَ يأتي آخِرُهُ حتَّى يُنسى أوَّلُهُ وقُل فيَّ بيتَينِ يَعلَقانِ بالرِّوايةِ وانا أُعطيكَ عطيَّةً لم يُعطِكَها احدٌ قبلي فغدا عليهِ وقالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطْحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَدَرٍ غَمْرِ
وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَيْنِ إِلَى ٱلعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ : أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطْنَبَ وَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ . فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ وَقْتَنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَحْبُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ :

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ قَالَ : وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيفَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ . هٰذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ . وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتَ :

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ
لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخِوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا : لَوْ مَدَحَ بِهَـذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ . وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا . وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ :

وَأَرَاكَ تَفْعَـلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَـلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِـلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَـا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَـا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَـةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ :

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ . وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَـدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ . وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يُحْدِثُ هٰذَا الشُّعَرَاءُ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلْأَنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مِمَّا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجَوْدَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةَ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً . وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلقَائِدُ ٱلجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تفرَّعَ مِنهَا مِنَ ٱلإِفرَاطِ فِي ٱلنَّجدَةِ وَسُرعَةِ ٱلبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمدَحُ ٱلقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلعَدلَ وَٱلإِنصَافَ وَتَقرِيبَ ٱلبَعِيدِ فِي ٱلحَقِّ وَتَبعِيدَ ٱلقَرِيبِ فِي ٱلأَخذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلقَوِيِّ وَٱلمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلفَقِيرِ وَٱلغَنِيِّ بِبَسطِ ٱلوَجهِ وَلِينِ ٱلجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلحُدُودِ وَٱستِخرَاجِ ٱلحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلمُلُوكِ فَلَا أَرَى لِمَدحِهِ وَجهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنسَانٍ بِٱلفَضلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلمَعرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَو جِسمِيَّةٌ كَٱلجَمَالِ وَٱلأُبَّهَةِ وَبَسطَةِ ٱلخَلقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنيَا وَكَثرَةِ ٱلعَيشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنهُ وَأَنكَرَهُ جُملَةً وَلَيسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلوَاجِبُ عَلَيهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلمَدحُ بِٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفسَانِيَّةِ أَشرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنكَارُ مَا سِوَاهَا جُملَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلحُذَّاقُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَولَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُروَى لِغَيرِهِ:

أَنتَ نِعمَ ٱلمَتَاعُ لَو كُنتَ تَبقَى ⁂ غَيرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلإِنسَانِ
لَيسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنكَ عَيبٌ ⁂ عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ رُبَّمَا ذَكَرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ ... سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دُعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ ... يَحْمِلْنَ مَا تَدْرِي وَمَا لَا تَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللهُ م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلِٱخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَـهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِـلُ
فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَـهُ ٱلرَّدَى   وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُـهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِـينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًأ فَٱللهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلْقَيْنِيِّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا . قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكَانَتْ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَحْدَاثُ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُـهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُـهْ
يُفَدِّينَـهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِـلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيَّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

---

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللّٰهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ
يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ
تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ
نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ أَتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ.

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ تَغْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ   كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ   جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا   وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا   مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ أَقْسَمَتْ
عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَآخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِافْتِخَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِالْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ:

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ:

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنَى سُوءٍ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءُ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِسَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى ٱللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ.

يَفخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ

أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلُ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ

ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَزَاوِيدِ

سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مَعْشَرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذْقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ زَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدْحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِالرِّثَاءِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيْتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْت أَوْ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيْتٌ . وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْأَسَفِ وَٱلِٱسْتِعْظَامِ إِنْ كَانَ ٱلْمَيْتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ :

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزُلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ ٱلْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ : (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا : أَنْعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ : (فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ إِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَفْظِعُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفْظٍ رَدِيءٍ غَيْرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ . وَمِنْ أَفْضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ

ٱلْحُسَيْنُ بْنُ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِٱبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ   فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا إِدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ   بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالْ   وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالْ

هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ   قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا ٱلْأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي أَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ أَوَّلُهَا:

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ ٱلْأَمَلْ وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا أَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ:

أَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْأَحْوَلِ أَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي قُحَافَةَ أَعْشَى بَاهِلَةَ إِنَّمَا هِيَ لِٱبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْهَا الدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَّةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ الْوَاجِبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ الْآخِذَ فِي الرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ النَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْاهْتِمَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللّٰهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ   وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ الْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ النَّبِيِّ هٰذَا الْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اِغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ   شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

وَالنِّسَاءُ أَشْجَى النَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ اللّٰهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ الْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ الْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ النِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا ابْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا   تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ الرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ امْرَأَةً لِضِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ الصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ فَحْلٌ مُجَوِّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللّٰهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةٌ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللّٰهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِٱسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا قَضَاؤُهُ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللّٰهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرْ

ٱللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَٱصبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ ٱلأُمُورِ :

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا

لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ

حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ

وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنتَ مَغْبُونٌ. وَٱتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَٱحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ

ٱذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّ نْيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّـةً فَقَدَتْ   مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ:

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْـلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْـدَ ٱلْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ   مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي   جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يَتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا   لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً   كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

أجلُّ قدركِ أن تُسمَى مُؤبّنةً ومن يصفكِ فقد سمّاكِ للعرب

ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ممن تحنن لمصابهم وتفجع بهم كالذي صنع أبو تمام في ابني عبد الله بن طاهر

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حسبُ الشاعر أن يكون مدحُه شريفاً واقتضاؤه لطيفاً وهجاؤه إن هجا عنيفاً فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان وداعية القطيعة والهجران. وقوم يدرجون العتاب في الاقتضاء والاقتضاء بالعتاب وأنا أرى غير هذا المذهب أصوب فالاقتضاء طلب حاجة وباب التلطف فيه أجود فإن بلغ الأمر العتاب فإنما هو طلب الإبقاء على المودة والمراعاة وفيه توبيخ ومضادّة لا يجوز معها بعد اقتضاء إلا أن الناس قد خلطوا هذين وساووا بينهما. فمن أحسن الاقتضاء على ما تخيّروه ونحوت إليه قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المهذّب والسناء

خليلٌ لا يغيّره صباحٌ عن الخلق الجميل ولا مساء

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَأَنْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ إِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ   إِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ   فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَأَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْأُمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرُّخَا إِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ أُرَجِّيكَ   لِمَا أَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ م أَسْبَابِي إِلَى ٱلْفَقْرِ

أَتَرْضَى لِي بِأَنْ أَرْضَى   بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِي

وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ   فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْأَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي   بَقَايَا أَمَانِي ٱلنَّفْسِ فِيهَا ٱلْأَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْأَيَّامِ حَتَّى إِذَا ٱنْقَضَتْ   أَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَأَنِّي نَازِفُ ٱلْبِئْرِ طَالِبًا   لِإِجْمَامِهَا أَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ أَبْقَى مَا أَصَابَ لِنَفْسِهِ   وَلَا هِيَ أَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ أَمْلَحِ مَا رَأَيْتُ فِي ٱلِاقْتِضَاءِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ قَوْلُ أَبِي

ٱلعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلعَـلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلعَيْنُ يَا عُمَرْ ... فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا ... فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً ... لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا ... بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا ... آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي ... أَيَّامُ عُمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاَسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاَحْتِجَاجُ وَٱلِاَنْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاَجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاَعْتِذَارُ وَٱلِاَعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْاَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ م ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ م ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ... تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ ... هِيَ ٱلْاَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهَذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ   طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا   لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً   عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ   مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَٱللّٰهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ   لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي   شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا
قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ
سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ
وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا   وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ   وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تُرَدُّ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ ... هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهِيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا ... تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهِيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ ... سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا ... وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي ... ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ ... إِذَا ٱطَّرَدَ ٱلْمِقْيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلُ ... وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُفْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا ... وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى ... وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي ... فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً ... أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً   فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلْقُبْحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَٱلْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ   لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ   إِنَّ ٱلْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ   وَٱللّٰهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ ٱلْعَيْبَ وَٱلنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي
أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيْبُ وَٱلْهَرَمُ

وَلَيْسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ ٱنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ ٱلصُّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ   فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ ٱلزَّمَانَ   فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا
وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ   فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ ٱلْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ ٱلْعِتَابِ قَوْلُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاء

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
أَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْأَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ أَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيْنُ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

ٱلْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً   مِنْ أَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابِ

وَقَالَ أَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ مُعَاتِبًا   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيُحَذِّرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْأُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ   تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
أَأَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَإِنَّنِي   أَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَأَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً   بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَإِنَّهَا   كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا   فَتُضْحِيَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ   إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عُمَرَ بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ   لَا يُلْقِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ   لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ   وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوُ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا   يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفُ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسَا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللّٰهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إنْ كانَ مِمَّنْ لا يُوقِظُهُ التَّلوِيحُ ولا يُؤْلِمُهُ إلَّا التَّصريحُ فذلك .
ولهذهِ العِلَّةِ اختلفَ هِجاءُ أبي نُواسٍ وكذلك هِجاءُ أبي الطَّيِّبِ فيهِ اختلافٌ لاختلافِ مراتبِ المَهجوِّينَ فمِنَ التفضيلِ في الهِجاءِ قولُ ربيعةَ بنِ عبدِ الرَّحمانِ الرَّقّيِّ :

لَشتَّانَ ما بينَ اليزيدَينِ في النَّدى   يزيدِ سُلَيمٍ والأعزِّ بنِ حاتِمِ
فهمُّ الفتى القَيسِيِّ إتلافُ مالِهِ   وهمُّ الفتى العَبسِيِّ جمعُ الدَّراهِمِ
فلا يحسَبِ التَّمتامُ أنِّي هجوتُهُ   ولكنَّني فضَّلتُ أهلَ المكارِمِ

ومِنَ الاختصارِ والاستخفافِ قولُ زيادٍ الأعجمِ :

قُمْ صاغرًا يا شَيخَ جَرْمٍ فإنَّما   يُقالُ لشيخِ الصِّدقِ قُمْ غيرَ صاغرِ
فمَن أنتمُ إنَّا نَسِينا مَنَ انتُمُ   وريحُكُمُ مِن أيِّ ريحِ الأعاصِرِ
أأنتم أولى جِئتُمْ معَ الرِّيحِ والدَّبا   فطارَ وهذا شيخُكُمْ غيرُ طائرِ
قضى اللهُ خلقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقتُمُ   بقيَّةَ خلقِ اللهِ آخِرَ آخِرِ
فلمْ تسمَعُوا إلَّا بمَنْ كانَ قبلَكُمْ
ولَمْ تُدرِكوا إلَّا مَدَقَّ الحوافِرِ

أخذَ منهُ الطِّرِمَّاحُ هذا المعنى فقالَ :

وما خُلِقَتْ تَيمٌ وعَبدُ مَناتِها   وضَبَّةُ إلَّا بعدَ خلقِ القبائلِ

ومِنَ الاحتقارِ قولُ جريرٍ في تَيمٍ :

ويُقضَى الأمرُ حينَ تغيبُ تَيمٌ   ولا يُستأذَنونَ وهُمْ شُهودُ
وإنَّكَ لوْ رأيتَ عَبيدَ تَيمٍ   وتَيمًا قُلتَ أيُّهما العَبيدُ

ومِنْ مَليحِ التَّهكُّمِ قولُ أبي هِفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ   وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ:

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ   شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيْتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ   يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ: مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ. وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَسْلُبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا. فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ:

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ   مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ. وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنِ اضْطَرَّهُ ٱلْمِقْدَارُ إِلَى ذٰلِكَ وَأَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصِدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ أَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَإِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَأَمَّا مَعَ ٱلْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ   إِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ أَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

أَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا   جَهْدُ ٱلْأَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تَمُدُّنِي   أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ ٱرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ   جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ
نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ اللّٰهُ أَبَا جَعْفَرٍ   دِعَابَةٌ بِتْ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيتَ فَيَا رُبَّمَا   تَأَذَّتِ الْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي الْاعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ النَّابِغَةِ الثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا :

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ   وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرَ تَمْسَحُهَا   رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ وَالسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ   إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا   كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى الْكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي   وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْأَسَدِ

وَالثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً   وَلَيْسَ وَرَاءَ اللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً   لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ امْرَأً لِيَ جَانِبٌ   مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِيدِ كَأَنَّنِي   إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَعْطَاكَ سُورَةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَالثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَالْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذِّبٌ

وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكَ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهَذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ

فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جُعِلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اي جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ ٱلشِّرَادِ فَمَعْنَى أَعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ ٱحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اَوِ ٱلْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْأَمْرُ وَٱحْتَجَزَ اَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْأَعْشَى اَسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا . قَالَ ٱلْأَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَٱللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ . فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُحِكْ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ . فَاَمَّا مَنْ شَقُوا بِٱلْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ. وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَاسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٍو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ ٱلدِّيَاتِ وَٱلنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ ٱبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلسَّبُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَٱسْتَهَانَتِ ٱلْعَرَبُ بِهِمْ وَٱنْطَبَعَ ٱلْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنْذِرِ. وَٱلْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ ٱلْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ ٱلْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَلِ ٱلْحَبِطِ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ . فَأَمَّا ٱلسَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ ٱلْكِلَابِيُّ : كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ هِيَ ٱلَّتِي شَأَمَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ : أَغُدَّةً كَغُدَّةِ ٱلْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ . قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ ٱلرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَٱلسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَيْنَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَبْعَثِ ٱلرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ ٱلْجَاحِظُ لَمْ تُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ . قَالَ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَأَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ . وَمَا أَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ ٱللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مُمَدَّحًا . قُلْتُ أَنَا : أَمَّا هٰذِهِ ٱلنِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا ٱللهُ مُضَاعَفَةً

عِندَ ٱلسَّيِّدِ ابي ٱلحَسَنِ وَقرنَهَا مِنـهُ بِالاستحقاقِ فقرَّت مقرَّهَا وَنزَلَت مَنزِلَهَا ٱلمختارَ لَهَا . وَأَحيَـا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيبَـانَ حَمدًا لَم يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَم يُعقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَم يَدَعْ لِمُعنٍ مَعنًى فِي ٱلجُودِ . وَقَالَ غَيرُهُ : كَانَ عَمرُو ٱبنُ ٱلعَلَاءِ مَمدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بنُ بُردٍ :

قُل لِلخَلِيفَـةِ إِن جِئتَـهُ نَصِيحًا وَلَا خَيرَ فِي ٱلمُتَّهَم
إِذَا أَيقَظَتكَ حُرُوبُ ٱلعِدَا فَنَبِّـهْ لَهَا عَمرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمنَةٍ وَلَا يَشرَبُ ٱلمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ ابو ٱلعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ ٱلمَطَايَا تَشتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَت إِلَيكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ ابو عُبَيـدَةَ : لَم يَمدَحْ احَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيبٍ غَيرُ ٱلحُطَيئَةِ :

لَعَمرُكَ مَا ٱلمُجَاوِرُ فِي كُلَيبٍ بِمُقصًى فِي ٱلجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَت قَيسٌ تَفتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضرِبُ ٱلمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَت تَمِيمُ دَهرًا لَا تَرفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بنُ رَبِيعَةَ :

أَبَنِي كُلَيبٍ كَيفَ تُنفَى جَعفَرٌ وَبَنُو ضُبَيعَةَ حَاضِرُوا ٱلأَجبَابِ
قَتَلُوا ٱبنَ عُروَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى نُحَـاكِمَهُم إِلَى جَوَّابِ
يَرعَونَ مُنخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُم فِي ٱلعِزِّ أُسرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلحَدِيدِ عَلَيهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ او بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ　　وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ　　بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

وَتَكَلَّمَتْ تَمِيمُ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمَ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِمُ بْنَ عَمْرٍو　　أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابِلُ إِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكُتُبِ وَٱلشِّعْرِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَخِيًّا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْإِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَحْنَفَ. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًّا قَدْ فَاضَ كِيسُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْأَرْضَ وَكَذٰلِكَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

أَنْشَدَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ:

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ أَسَابِقِي ... إِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْأَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ ٱلسَّعْدِيَّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ: أَتَسْبِقُنِي أَنْتَ إِلَى ٱلْأَكْلِ أَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ إِذًا أَصَابِعِي إِذَا لَمْ أَرْمِكَ فَأَقْتُلْكَ وَآكُلْ لَحْمَكَ. ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ: لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِئْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي. وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ:

أَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ　　غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذَلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ وَيَأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ. قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قَتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ:

أُولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ　　وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ: لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ:

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ　　دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى:

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ　　أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ:

فَجُنِّبْتَ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ　　وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا زَيْنَبَ قَالَ: إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا الْأَمْطَارُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذَلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ ... فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

أَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ. وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ ... أَدْعُو حَنِيفًا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَى وَهُوَ ابْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ أَعْلَاهُ. وَزَادَ أَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ ... عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهَذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ:

كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ ... دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى الثِّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ. وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ:

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا   يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَيَشْغَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلْآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا أَذَيَا وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا: قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلْأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ هِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ بِجَعْلِهِ ثُنْيَانًا. وَقَالَ آخَرُ:

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي   يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْتَحَقُّ مُتَمَهِّلًا. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا. قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ   لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلْأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ   مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا أَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ:

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ يُهْجَى هَجَوْتُكُمُ
يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ
تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى لَكُمْ نَسَبًا
وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ :

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ
وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْاِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأْيِيدُ . وَٱلْاِرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْإِرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْإِرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي   أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ   أَكُولٍ لِحَيَّاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ   فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ: وَٱللهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَأَيْتَ فَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَحَلَفَ: إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَازِحًا. وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ: كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءَ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارِ تَوَقُّرٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ أَجِيزُوا: بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا. فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ. قَالَ: فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشَدُوهُ. فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ: حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا. فَأَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي أَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ. وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ. فَقَالَ لِرَفِيقِهِ: هَلْ رَأَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ:

إِنَّمَا بَكَّى عَلَى ٱلْمُغْ   تَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَٱسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ. فَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِٱرْتِجَالُ. وَأَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَةٌ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَأَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: الْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ الْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهَةِ وَالِارْتِجَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ إِذْ كَانَتِ الْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمِنُ زَلَلُهُ شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرَّوِيَّةِ وَالْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ السَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ:

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ:

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَجْدَةٌ. وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ:

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَأَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ الصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ: أَنْشِدْنِي. قَالَ: حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ. قَالَ: أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ. فَقَالَ:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُبَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرِقَةِ بَعْضِ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحٰقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ
بِرَأْسِ إِسْحٰقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ أَقْرَبُهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلْأَرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ اَنِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ اَبْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَاِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ اَبِي فَنَنٍ:

وَاِنَّ اَحَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ ... يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَاِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَاَغْتَدِي ... لِلْبُخْلِ تِرْبًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اَكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ اِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِاَنَّهُ قَيْدٌ لِلْاَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ لِيَسْتَعْمِلَ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْاَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ اَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْاَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ اَنَّهُ اِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَاِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ اِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا   رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذَٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هَٰذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْطَقِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ وَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مقامٍ مقالٌ. وشعرُ الشاعرِ لنفسِهِ وفي مرادِهِ وأمورِ ذاتِهِ من مدحٍ وغزلٍ ومكاتبةٍ ومجونٍ وخمريةٍ وما أشبهَ ذلكَ غيرُ شعرِهِ في قصائدِ الحفلِ التي يقومُ بها بينَ السماطينِ. يُقبلُ منهُ في تلكَ الطريقِ عفوُ كلامِهِ وما لا يتكلّفُ لهُ ولا ألقى بهِ بالًا ولا يُقبلُ منهُ في هذهِ إلّا ما كانَ محككًا معاودًا فيهِ النظرُ جيدًا لا غثَّ فيهِ ولا ساقطَ ولا قلِقَ. وشعرُهُ للأميرِ غيرُ شعرِهِ للوزيرِ والكاتبِ ومخاطبتُهُ للقضاةِ والفقهاءِ بخلافِ ما تقدّمَ من هذهِ الأنواعِ.

والمتأخرُ من الشعراءِ في الزمانِ لا يضرُّهُ تأخرُهُ إذا أجادَ كما لا ينفعُ المتقدمَ تقدُّمُهُ إذا قصّرَ وإنْ كانَ لهُ فضلُ السبقِ فعليهِ دركُ التقصيرِ كما أنَّ للمتأخرِ فضلَ الإجادةِ والزيادةِ. ولا يكونُ الشاعرُ حاذقًا مجوّدًا حتى يتفقّدَ شعرَهُ ويعيدَ فيهِ نظرَهُ فيُسقِطَ رديَّهُ ويُثبتَ جيّدَهُ ويكونَ بالركيكِ مطّرحًا لهُ راغبًا عنهُ. فإنَّ بيتًا جيّدًا مقامَ ألفِ رديءٍ. وقالَ امرؤُ القيسِ وهوَ أولُ ما زعموا أنَّهُ اختيرَ لهُ وعُلِمَ بهِ أنَّهُ أفضلُ الشعراءِ والمقدَّمُ عليهم:

أذودُ القوافيَ عنّي ذِيادا ذِيادَ غلامٍ جريءٍ جرادا
فلمّا كثُرْنَ وعنّينَهُ تخيّرَ منهنَّ ستًّا جيادا
فأعزلُ مرجانَها جانبًا وآخذُ من دُرِّها المستجادا

ويُقالُ إنَّ أبا نواسٍ كانَ يفعلُ هذا الفعلَ ويُبقي الجيّدَ ويلتمسُ لهُ منَ الكلامِ ما سهُلَ ومنَ المعنى ما كانَ واضحًا جليًّا

يُعرَفُ بَديًّا. فَقَدْ قَالَ بَعضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ   وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ   وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصَّيْمَرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَإِذَا تَأَدَّى ذٰلِكَ عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ الدَّجَاجَةُ إِذَا انْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ الْبِئْرِ إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأُفْحِمَ الشَّاعِرُ عَلَى أُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحِمَ الصَّبِيُّ إِذَا انْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي الذُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ الْعُيُوبِ لِأَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ الْإِهْتَارُ فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ النَّابِغَةِ إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى الرَّامِي إِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ الْبُحْتُرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِيِّ فِي الشِّعْرِ وَذِكْرِ أَشْجَعَ السُّلَمِيِّ فَقَالَ : إِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَنِفْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا انْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْأَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشِّعْرَ

فَتَشْحَذُ ٱلقَرَائِحَ وَتُنَبِّهُ ٱلخَوَاطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ ٱلكَلَامِ وَتُسَهِّلُ طَرِيقَ ٱلمَعْنَى لِكُلِّ ٱمْرِئٍ بِحَسَبِ تَدْبِيرِ طَبْعِهِ وَٱطِّرَادِ عَادَتِهِ. وَسَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي اَقَاوِيلِ ٱلعُلَمَاءِ بِمَا اَرْجُو اَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ اِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ ٱلنَّطَّاحِ ٱلحَنَفِيُّ: ٱلشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ ٱلمَاءِ اِنْ تَرَكْتَهَا نَضَبَتْ وَاِنِ ٱسْتَهْتَنْتَهَا هَتَنَتْ. وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ اَنْ تُسْتَهْتَنَ بِٱلعَمَلِ وَحْدَهُ لِاَنَّا نَجِدُ ٱلشَّاعِرَ تَكِلُّ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ ٱلعَمَلِ مِرَارًا وَتَنْزِفُ مَادَّتُهُ وَتَنْفَدُ مَعَانِيهِ فَاِذَا جَمَّ طَبْعُهُ اَيَّامًا وَرُبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ صَنَعَ ٱلشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آبِدَةٍ وَاَتَاهُمْ بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةٍ وَفُتِحَ لَهُ مِنَ ٱلمَعَانِي وَٱلاَلْفَاظِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلُ لَٱسْتُغْلِقَ عَلَيْهِ وَاُبْهِمَ دُونَهُ. لٰكِنْ بِٱلمُذَاكَرَةِ مَرَّةً فَاِنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ ٱلخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عُيُونَ ٱلمَعَانِي وَتُوقِظُ اَبْصَارَ ٱلفِتْنَةِ وَبِمُطَالَعَةِ ٱلاَشْعَارِ كَرَّةً فَاِنَّهَا تَبْعَثُ ٱلحَسَدَ وَتُولِدُ ٱلشَّهْوَةَ. وَسُئِلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ اِذَا ٱنْقَفَلَ دُونَكَ ٱلشِّعْرُ. فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَفِلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُهُ. قِيلَ لَهُ: وَعَنْهُ سَاَلْتُكَ مَا هُوَ. قَالَ: ٱلخَلْوُ بِذِكْرِ ٱلاَحْبَابِ وَلَعَمْرِي اِنَّهُ اِذَا ٱنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ ٱلقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ ٱلبَابِ وَحَطَّ رِجْلَهُ فِي ٱلرِّكَابِ عَلَى اَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ ٱلمَدْحِ وَٱلهِجَاءِ وَاِنَّمَا كَانَ وَاصِفَ اَطْلَالٍ وَنَادِبَ اَظْعَانٍ وَهُوَ ٱلَّذِي اَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ ٱلفُحُولِ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ ٱلشِّعْرَ اِذَا عَسُرَ عَلَيْكَ. قَالَ: اَطُوفُ فِي ٱلرِّيَاضِ ٱلمُعْشِبَةِ فَيَسْهُلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيَسْرِعُ اِلَيَّ

آحسنهُ . وقالَ ٱلأَصمعيُّ : مَا ٱستُدعِيَ شاردُ ٱلشعرِ بمثلِ ٱلماءِ ٱلجارِي وٱلشَّرفِ ٱلعالي وٱلمكانِ ٱلخالي . وقيلَ ٱلخالي يعني ٱلرَّوض

وحدَّثنا بعضُ أصحابِنا مِنْ أهلِ ٱلمهديَّةِ وقدْ مررْنا بموضعٍ بها يُعرفُ بٱلكنديَّةِ وهُوَ أشرفُها أرضًا وهواءً . قالَ : جئتُ هذا ٱلموضعَ مرَّةً فإذا عبدُ ٱلكريمِ عَلى سطحٍ هنالكَ قدْ كشفَ ٱلدُّنيا . فقلتُ : أبا مُحمَّدٍ . قالَ : نعمْ . فقلتُ : مَا تصنعُ هاهُنا . قالَ : ألقحُ خاطِري وأجلُو نَاظري قلتُ : فهلْ نتجَ لكَ شيْءٌ . قالَ : مَا تقرُّ بهِ عيني وعينكَ إنْ شاءَ ٱللهُ تعالَى وأنشدَ شِعرًا يدخلُ مَسامَّ ٱلقلوبِ رقَّة . قلتُ : هذا ٱختيارٌ منكَ ٱخترعتَهُ . قالَ : بلْ برأيِ ٱلأَصمعيِّ

وقالُوا كانَ جريرٌ إذا أرادَ أنْ يؤبِّدَ قصيدةً صنعَها ليلًا يُشعلُ سراجًا ويعتزلُ أهلَهُ وربَّما علَا ٱلسطحَ وحدَهُ وغطَّى رأسَهُ رغبةً في ٱلخلوةِ في نفسِهِ . فحُكيَ أنَّهُ صنعَ ذلكَ في قصيدتِهِ ٱلَّتي أخزَى بها بني نُميرٍ

ورُوِيَ أنَّ ٱلفرزدقَ كانَ إذا عصتْ عليهِ صنعةُ ٱلشعرِ ركبَ ناقةً وطافَ وحدَهُ مُنفرِدًا في شعابِ ٱلجبالِ وبطونِ ٱلأوديةِ وٱلأماكنِ ٱلخاليةِ فيُعطيهِ ٱلكلامُ قيادَهُ . حُكيَ ذلكَ في قصيدتِهِ ٱلفائيَّةِ : عُرِفتَ بأعشاشٍ وما كِدتَ تعرِفُ

وذُكِرَ أنَّ فتًى مِنَ ٱلأنصارِ فاخرَ بأبياتِ حسَّانَ بنَ ثابتٍ :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَٱنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لُبَيْنَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجَوْدَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشَأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَالَّةٌ مَرِيضَةٌ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ . فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ . قَالَ ٱللهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ : ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ . فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ . ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ . قُلْتُ : كَلَّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

« كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ » زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ :

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا
فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقْعَتْ إِنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ . صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ :

فَقُلْتُ أَنَا ٱلْمَوْتُ ٱلَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَٱنْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِٱلطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي ٱلرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ : أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ أَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ :

أَنَا ٱلدَّهْرُ يُفْنِي ٱلْمَوْتَ وَٱلدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ ٱلدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ ٱلْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ ٱلْأَعْجَازَ بِٱلصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلتَّصْدِيرُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَٱلصَّوَابُ أَنْ لَا يَصْنَعَ ٱلشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلْبَتَّةَ بَلْ أَصْنَعُ ٱلْقَسِيمَ ٱلْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ ٱلْقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ ٱلْقَسِيمَ ٱلثَّانِي أَفْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي ٱلْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرَ ذٰلِكَ يُخِلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ ٱلْقَسِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَّا فِي ٱلنُّدْرَةِ ٱلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّنْقِيحِ ٱلْمُفْرِطِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بَيْتٌ وَٱثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِأَبْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَٱنْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ إِلَّا ٱنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ وَقِيلَ : إِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشُ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلبِرّ وسُلافِ ٱلخَمرِ ولُحومِ ٱلضَّأنِ وَٱلخلوَةِ إِلَى أنْ بَلَغُوا مَجهُودَهُم . فَلَمَّا سَمِعُوا قَولَ ٱلقُرآنِ : وَقِيلَ يَا أرضُ ٱبلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أقلِعِي وَغِيضَ ٱلمَاءُ وَقُضِيَ ٱلأمرُ وَٱستَوَتْ عَلَى ٱلجُودِيِّ وَقِيلَ بُعدًا لِلقَومِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أنَّهُ لَيسَ بِكَلَامِ مَخلُوقٍ . وَقِيلَ : مِقوَدُ ٱلشِّعرِ ٱلعِتَابُ . وَذُكِرَ عَن أبِي ٱلطَّيِّبِ أنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيهِ وَهُوَ يَصنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلإِنشَادِ مِن أوَّلِ ٱلقَصِيدَةِ إِلَى حَيثُ ٱنتَهَى مِنهَا . وَقَالُوا : ٱلحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلقَرِيحَةِ ٱنتِظَارُ ٱلجَمَامِ . وَهٰذَا عِندِي أنجَعُ ٱلأقوَالِ وَبِهِ أقُولُ وَإِلَيهِ أذهَبُ . وَقَالَ بَكرُ بنُ عَبدِ ٱللّٰهِ ٱلمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلقُلُوبَ وَلَا تُهمِلُوهَا وَخَيرُ ٱلفِكرِ مَا كَانَ عَن عَقِبِ ٱلجَمَامِ وَٱشحَذُوا ٱلقُلُوبَ بِٱلمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيأَسُوا مِن إِصَابَةِ ٱلحِكمَةِ إِذَا ٱمتُحِنتُم بِبَعضِ ٱلِٱستِغلَاقِ فَإِنَّ مَن أدمَنَ قَرعَ ٱلبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلخَلِيعُ : مَن لَم يَأتِ شِعرُهُ مَعَ ٱلوَحدَةِ فَلَيسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلخَلوَةَ وَرُبَّمَا أرَادَ ٱلغُربَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلجِنِّ : مَا أصفَى شَاعِرٌ مُغتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَركُهُ فِي هٰذَا ٱلمَوضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشرُ بنُ ٱلمُعتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلكَلَامِ وَٱلفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا : خُذْ مِن نَفسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلكَ ٱلسَّاعَةِ أكرَمُ جَوهَرًا وَأشرَفُ حِسًّا وَأحسَنُ فِي ٱلأسمَاعِ

وَاَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الخَطَاءِ وَاَخْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الاَطْوَلُ بِالكَدِّ وَالمُجَاهَدَةِ وَبِالتَّكَلُّفِ وَالمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَاِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَاِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ المَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يُلْتَمَسَ اِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ الثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِنْدَ الخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ العَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلعَامَّةِ قَصَدْتَ وَالمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الخَاصَّةِ وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَّضِعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي العَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَاِحْرَازِ المَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ الحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ المَقَالِ . وَكَذٰلِكَ اللَّفْظُ العَامِّيُّ وَالخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ العَامَّةَ مَعَانِيَ

ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ فِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْنَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحِلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ. فَإِنْ أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِنْ أَنْتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْنَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْنَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلِٱنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلِٱمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَاَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَاَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَإِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوِيَ ٱنْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيُجُودُ فَإِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ اَيضًا . وَٱلوُصُولُ اَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي . وَقَالَ غَيْرُهُم : ٱلمَقَاطِعُ مُنقَطَعُ ٱلأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعفَرٍ فِي بَعضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ اَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ اَوْ شَبِيهٍ بِهِ اَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَاَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلعِبَارَةِ اِلَى ٱلمَقَاطِعِ اَوْ آخِرِ اَجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ اُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَاِءْ م طَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ اَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ اَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ . ٱللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى اَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ اِلَّا مُتَاَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي اَنْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ اَنَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ اَوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِاَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ اِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِاَنَّ ٱلقَصِيدَةَ اِنَّمَا لَهَا اَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا اَوَائِلُ وَاَوَاخِرُ اِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبْيَاتِ اَوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَ سَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شَبَّةَ كَانَ يَقُولُ : ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ . حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلِٱسْتِعَانَةُ فَقَالَ : أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدُ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَزَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّبْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلجُمُومَيْنِ سَاهِرَا   وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا   إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلكَرَى بَيْنَ ٱلجُفُونِ مُحِيلُ   عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلعُقَارُ   وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ   وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ أَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبنَ عليٍّ ٱلخُزاعيَّ وردَ حمصَ فقصدَ دارَ عبدِ ٱلسَّلامِ بنِ رَغبانَ ديكِ ٱلجنِّ فكتمَ نفسَهُ عنهُ خوفًا مِن قوارصِهِ فقالَ : ما لهُ يَستتِرُ وهوَ أشعرُ ٱلجنِّ وٱلإنسِ أليسَ ٱلقائِلَ :

بِهَا غَيرُ مَعذولٍ فدَا وخمارَها ٭ وَهَل بعشيّاتِ ٱلغبوقِ ٱبتِكارُها

فظهرَ إليهِ وٱعتذرَ إليهِ وأحسنَ . ثمَّ تناشدا فأنشدَ ديكُ ٱلجنِّ ٱبتداءَ قصيدةٍ :

كأنَّها ما كأنَّهُ خللُ ٱلخلّةِ ٭ وقفُ ٱلهلوكِ إذ بَغَمَا

فقالَ لهُ دعبلٌ : أسكتْ فوَٱللهِ ما ظننتُكَ تُتِمُّ ٱلبيتَ إلّا وقد غُشِيَ عليكَ أو تشكّيتَ دِماغَكَ وكأنّكَ في جهنّمَ تخاطبُ ٱلزَّبانيةَ أو تخبّطَكَ ٱلشيطانُ مِنَ ٱلمسِّ . وإنّما أرادَ ٱلديكُ أن يهوِّلَ عليهِ ويقرعَ سمعَهُ عسى أن يُزعِجَهُ أو يروعَهُ فسمعَ منهُ ما كرِهَ . ولعَمري ما ظلمَهُ دعبلٌ ولقد أبعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ مِن جهاتٍ منها إضمارُ ما لم يُذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلِهِ فيُعذَرَ ولا كثُرَ ٱستعمالُهُ فيُشهَرَ مع إحالةِ ٱلتشبيهِ على تشبيهٍ ثقُلَ تجانُسُهُ ٱلذي هوَ حشوٌ فارغٌ لو طُرِحَ مِنَ ٱلبيتِ كانَ أحزمَ وٱستدعى قافيةً لا لشيءٍ إلّا لفسادِ ٱلمعنى وٱستحالةِ ٱلتشبيهِ ما ٱلذي يريدُ ببغامِهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهوَ ٱلسوارُ ولِمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصّةً . ومثلُهُ قولُ محمّدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزيّاتِ يصفُ ناقتَهُ في أوّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ :

كأنَّها حينَ تناءى خطوُها ٭ أجشُّ موشيُّ ٱلشوى يرعى ٱلقُلَلْ

فَالبَيتُ الأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ العَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي الوَصْفِ . هٰذَا هُوَ الجَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَعُونَ التَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى القُلَلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ الجِبَالِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ الوَعِلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ أَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ القُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ أَوْ مَكَانًا وَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ المِصْرَاعَ الثَّانِي مِنَ الأَوَّلِ إِذَا ابْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي النَّسِيبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ ‏ ‏ أَغِذَاءُ ذَا الرَّشَإِ الأَغَنِّ الشِّيحُ

فَهٰذَا اعْتِذَارُ مَنِ اعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ أَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ العَظَائِمِ مِنَ الأُمُورِ وَالنَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ امْتَدَحَ أَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَافْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ المَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللهُ وَالمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّـةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ.

وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ «أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ» فَقَالَ لَهُ عَبْـدُ ٱلْمَلِكِ: بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَـةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَـايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِـدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ.

وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَـدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ «مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ» وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ: وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ   فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْـهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْاشْيَاءِ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ أَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلِ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْاوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِأَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدٌ بِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: إِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْاغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ أُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَأُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: أَتَعْرِفُ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ أَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

يَا أَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ أَبَدًا دُمْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي أَسَاءَ فِيهِ أَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلُهَا :

أَرَبْعَ ٱلْبِلَى إِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

وَخَتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا يَا أَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا أَشُكُّ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ. وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱللَّهْوِ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلْإِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْإِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَأُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ. وَأَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ إِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَأَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنْحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ
عَلَى جَهْزٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ
بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا
مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا :

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

إِلَّا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ أَنَّهُ قَصَدَ ٱلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا إِمَّا إِخْبَارًا بِٱلصِّدْقِ وَإِمَّا تَعَاطِيَ صَعْلَكَةٍ . قَالَ أَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

إِلَيْكَ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَنِينًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيقِ وَلَا ٱلْهَنَا

فَذَكَرَ أَنَّ قَلَائِصَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَطَوْا إِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِٱلنِّعَالِ وَأَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ ٱللُّغْزِ وَأَتْبَعَهُ أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ ٱلرَّدِيفَ وَلَا بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَٱلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً أُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّ أَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلطَّيِّبِ لٰكِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ أَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحَضْرَمِيُّ مِنَ ٱلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ ٱلْمُسَافِرُ دُونَ ٱلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ ٱلْكَلَامِ أَنَّ مَقْصَدَ ٱلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَي أَغَرَّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِاقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللّٰهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

اَعِرْ شِعْرَكَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصَفَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْإِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مَنْ خَدَمَ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلْاِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلْاِبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلْاِبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَّلَهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا اَبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لَارْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ الْإِبْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ :

أَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ٱبْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةِ الْإِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ٱبْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ٱبْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ :

عَارَضْنَنَا أُصُلًا فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالْإِسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ :

سُقِيَتْ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا
وَلَوَ أَنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرٰهِيمَا

وَاَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلفَنِّ اَبُو ٱلطَّيِّبِ وَاِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَٱنْظُرِي اوْ فظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَأَلَا
عَلَّ ٱلْاَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
اِلَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى اَنْ يَكُونَ ٱلْاَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

سَاَشْكُو اِلَى ٱلفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانَا لَعَلَّ ٱلفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ. لِاَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اَتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَالِ وَٱلسَّمَاحَةِ فَقَالَ:

اَمِيرٌ رَاَيْتُ ٱلْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَاَنَّهُ اَشَارَ اِلَى اَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اَتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلْقِيَادَةِ فَقَالَ:

اَيْقَنْتُ اَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى اَنَّهُ يَشْفَعُ فَاِنْ اُجِيبَ اِلَى مُسَاعَدَةِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَاِلَّا رَجَعَ اِلَى ٱلْقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ اَبِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

اُحِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاَشْكُو اِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن أبي نواس

وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر عن معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني آخر نسيب قصيدة اعتذر بها إلى النعمان :

فكفكفت مني عبرة فرددتها
على النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبى
وقلت ألما أصح والشيب وازع

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

ولكن هما دون ذلك داخلا مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع منه ذلك فقال :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع

فوصف الحية والسليم الذي شبه نفسه به ما شاء ثم تخلص من الذي كان فيه فقال :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

ثم اطرد له القول ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة وهو ما أشرت إليه غير خاف إن شاء الله تعالى . وقد

يَقَعُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلِٱنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ. وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرْبَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ ٱلْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَإِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصْمَعِيُّ إِلَى أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ. وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى بِهِ وَأَشْعَرَ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْإِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ   ثَبِيرًا وَٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ رَيْعَا

وَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ. وَمَا أَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ. وَقَدْ جَعَلَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا ٱلْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ. وَقَالَ أَيْضًا :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ   وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ ابُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ ... عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ ابُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي اخْذِ ٱلْعَفْوِ الَا تَرَى مُعَلَّقَةَ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً ... بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى انَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ اصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ افْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضَّعَفَةِ الَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

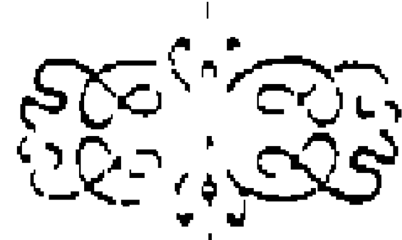
فَلَا هَجَمَتْ بِهَا الَّا عَلَى ظَفَرٍ ... وَلَا وَصَلَتْ بِهَا الَّا عَلَى امَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ « لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ « الَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « الَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات



اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٣	٥	الحدِلِ	الحدَلِ
٠	١٤	الحدْلِ	الحدَلِ
٤	١١	كالحالَ	كالحالِ
٠	١٤	كلُّ	كلَّ
٥	١٣	يُثبتُ	يُثبتَ
٣١	٠٤	استَبهمَ الكَلَامَ	استُبْهمَ الكلامُ
٣٦	١٩	يُقْنعُ	يُقنِعَ
٤٣	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فانْ	فانَّ
٤٨	٠٤	سُ عَتَبَةَ سُ	سَ عتَبَةَ سِ
٠٠	٦و٧و٨	وَهُوَ	وَهوَ
٥٤	١٧	حُلَّها ودُقَّها	جِلها ودِقها
٥٦	٠٨	آلتي	أمَّا التي
٥٧	١٧	ألاكترات	الإكترات
٥٨	٠٨	يَعلَمْ	يَعلَمُ
٥٩	١٤	والتشرر	والتَّشَدُّدِ
٦٢	٠٧	والتَّقصيرِ	والتقصيرُ
٠٠	٠٨	وقصدِ	وقصدُ
٦٣	٠٣	والسخيف	السَّخيف
٧٠	٠٣	والطَّيشِ	والطَّيشُ
٧١	٠٥	يستودَعَ	يستودعُ
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسةِ	الحروب مجالسةِ
٨٦	٠٧	كثيرةٍ	كثيرةً
٩٠	٠٧	الشعبُ	الشعث
١٠٣	١٣	مقدمتِهِ	مقدَّمَتَيهِ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	اَلتَّـكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الماظلك	الماظَلك
١٢٤	٠٧	اَلـتَّـكونيِّ	الـسُّكُونيِّ
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحَافِيهِ	اَلحَافِيهِ
١٤٤	١٦	وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلَهُ	وغيرَ ..... يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالقصانِ	بالمقصان
١٥٢	١٠	والحَسدانية	والحُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ونجاورهم
١٦٠	٠٨	طلبُهُ	طلمَهُ
١٦٦	٢٠	إِحّا	آحّا
١٨٠	٠٤	يَسُرُ	يُسَرُ
١٨١	٠٢	ابثارِ	ابتار
١٨٢	١١	فالدِّكرانُ	فالذُّكران
١٨٤	١٢	واحدُ	واحَدُ
٢١١	١٤	والتبرّوة	والتبرُّوة
٢١٢	١١	اَلاحسن منها	اَلاَحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتمنبرَ	وتمنبرُ
٠٠٠	١٣	لَقْب	لَقَب
٠٠٠	١٤	المطّلعُ	المطَلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتقعيه	بتَقعِيَة
٢١٥	٢٠	ابا دَاوُدَ	آبَا دُوَادِ
٢١٦	٠٠	الخطابة	الخَطابَة
٠٠٠	٠٦	بومون	يرمون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلَفَتْ	أَلَّفَتْ
٢١٧	٠٩	اتنسيم	لَتَسنيم
٢١٨	١٥	تَاكَأَهُ	تَلَكُّؤُهُ
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْد	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيه	بِمعانيه
٢٣٣	٠٤	والدي	الذي
٢٣٦	١٥	ومَنْ	وممّن
٠٠٠	١٦	باهلةِ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكرَ	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	تَمامة	ثُمامة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وطاهرٌ
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الصَّلِيلُ	الصَّلَيْلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة في ظهور امرهِ غنى عن التنبيه اليهِ